ابراهيم الكوني



نزيف الحجر





هل يمكن لحدث مألوف تكرر ملايين المرات في ماضي الإنسان ويقع يومياً في أرجاء المعمورة، مثل جريمة قتل الإنسان لأخيه الإنسان أن يكون موضوعاً لعمل روائي جديد ومتفرّد يدهشنا ويهزّنا من أعماقنا في عصر امتهن فيه قادته وزعماؤه وأبطاله حرفة الحروب وسفك الدماء؟ ما الذي يدفع «قابيل» اللقيط إلى مطاردة قطعان الغزلان وإبادتها؟ ما سر نهمه الشديد إلى اللحم الذي يحرّكه وينهش قلبه بحيث يقوده إلى ذبح أخيه في الآدمية؟ وما هي طبيعة العلاقة التي توحّد بين اللقيط الذي تستبدّ به غرائز الصياد وشهواته الإجرامية وبين الكابتن الأميركي «جون باركر» دارس الاستشراق والفلسفات الشرقية والتصوف الإسلامي؟ ولماذا كان الضحية هو «أسوف» حارس الرسوم والأحجار التي خلّفها الأسلاف، ذلك الذي لم يجاور أنسياً ولا يعرف معنى النقود ولم يعاشر انثى ولا يحمل سلاحاً ويعيش في الخلاء معتزلاً الناس وقد عافت نفسه لحم الحيوان فلا يأكله؟ ثمّ ما هذه الحضارة التي تضع بين أيدي الناس أسلحة فتّاكة لإبادة الطبيعة وسحق الروح؟

يصف «الجلولي»، الشيخ القادري، «قابيل»: «في فم هذا المخلوق دودة تجعله يأكل نفسه إذا لم يجد لحماً يأكله»، في حين يخاطب الكابتن الأميركي بهذا السؤال المرعب: «كيف تدّعي الديانة بدين المسيح وهو بريء منك؟».

في هذه الرواية ذات المستويات المتعددة ـ الأخلاقية والدينية والفلسفية ـ يبدع الكوني عالماً يوحّد بين الواقعي والأسطوري فيخرج بنا عن المعاني المألوفة للأشياء ويضعنا في مواجهة الطابع المتناقض للإنسان: الجليل والدنيء، البهي والقبيح، البريء والقاتل.

تاسيلي للنشر والاعلام
دار التنوير للطباعة والنشر

نزيف الحجر

ابراهيم الكوني

نزيف الحجر

* إبراهيم الكوني: **نزيف الحجر**.
* الطبعة الثالثة: ١٩٩٢.

* الناشر: **دار التنوير للطباعة والنشر** **تاسيلي للنشر والاعلام**

133 Makarios Avenue
Classic House Building-Office No.4
Tel: (357-5) 387463
Fax: (357-5) 387464
Limassol - Cyprus

* **المركز الرئيسي**:
الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف ـ
الطابق السابع ـ تلفون ٨٠٦٣٥٩
ص. ب ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير في السماء إلا أمم أمثالكم﴾.

القرآن الكريم
سورة الأنعام/ الآية ٣٧

«وحدث إذ كانا في الحقل أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله، فقال الرّب لقابيل: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم. هل أنا حارس لأخي؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون في الأرض».

العهد القديم
سفر التكوين/ الإصحاح الرابع

الأيقونـة الحجريـة

لا يروق للتيوس أن تتناطح أمام وجهه إلا عندما يشرع في الصلاة.

مع حلول العشيّة وتزحزح القرص الملتهب عن العرش في قلب السماء مودعاً، مهدداً بالعودة في الغد لإتمام مهمته في إحراق ما لم يستطع إحراقه اليوم، يحشو «أسوف» ذراعيه في رمل الوادي ويبدأ في التيمم لإنجاز صلاة العصر.

سمع هدير المحرك البعيد، فقرر أن يسرع ويعطي لله حقّه قبل أن يصل النصارى الذين تعوّد في السنوات الأخيرة أن يستقبلهم في الوادي ليتفرجوا على الرسوم المحفورة في الصخور.

ولكن إبليس يدخل في التيوس، فيحلو لها أن تتناطح قدّامه في اللحظة التي يكبّر فيها ويتمتم بالفاتحة كأنها تتباهى بقرونها أو تريد أن تريه فروسيتها في النطاح. حركة التيوس اليوم سببتها معزاة لعوب، أغرت جدياً عنيداً، فتعقبها منذ الصباح، يتحسس مؤخرتهـا بخياشيمـه، ويحاول بـإلحاح أن يتسلقها من الخلف، فأثار غيرة التيوس، فاجتمعوا وبدأوا المبارزة مسلحين بقرونهم الطويلة.

قطع صلاته، ولعن الشيطان، وذهب ليؤدي الفريضة في مواجهة أهم صخرة في وادي «متخندوش».

الصخرة تنتصب في نهاية الضفة الغربية للوادي، عند التقائه بوادي «آينسيس»، فيكوّنان معاً وادياً واحداً، عميقاً، واسعاً، يستمر منحدراً نحو الشمال الشرقي حتى يصبّ في «أبرهوه العظيم» في «مساك ملّت».

الصخرة العظيمة تحدّ سلسلة الكهوف، وتقف في النهاية كحجر الزاوية، لتواجه الشمس القاسية عبر آلاف السنين، وقد زيّنت بأبدع رسوم إنسان ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى كلها: على طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق، يخفي وجهه بذلك القناع الغامض، ويلامس بيده اليمنى الودّان(*) الذي يقف بجواره مهيباً، عنيداً، يرفع رأسه، مثله مثل الكاهن، نحو الأفق البعيد، حيث تشرق الشمس وتسكب أشعتها في وجهيهما كل يوم.

عبر آلاف السنين، حافظ الكاهن العظيم والودّان المقدّس على ملامحهما المحفورة، ملامحهما الواضحة، العميقة، الجليلة، الناطقة في صلب الصخرة الصمّاء.

يظلّ الكاهن محفوراً في الحجر الصلد، واقفاً في قامته الطبيعية، بل يبدو أطول وأضخم من قامة الإنسان الطبيعية، ينحني قليلاً نحو الودّان المقدس الذي يفوق الودّان العادي حجماً.

وبالطبع لم يخطر ببال أسوف في الماضي، عندما قطع الوادي الموحش في شبابه منشغلاً برعي أغنامه، أن يكون هذا الرسم المحفور في الصخور بمثل هذه الأهمية كما يراه اليوم عندما أصبح قبلة لسيّاح النصارى. يأتونه من أبعد البلدان، يعبرون الصحراء بسيارات البريّة ليشاهدوا الحجر، ويفتحون أفواههم دهشة أمام عظمته وجماله وغموضه. بل انه رأى في إحدى المرات امرأة أوروبية تركع أمام الصخرة على ركبتيها وتتمتم بكلام

(*) الودّان أو (الموفلون) أقدم حيوان في الصحراء الكبرى، وهو تيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر.

مبهم، عرف بالحدس أنه صلوات النصارى.

الرسوم تزيّن صخور الجبال والكهوف في الأودية الأخرى في كل «مساك صطفت». وقد اكتشفها في صغره عندما كان يهدّه الجري خلف القطيع الشقي فيلجأ للكهوف ليستظلّ من الشمس ويفوز بلحظات راحة فيتسلّى بمشاهدة الرسوم الملوّنة: صيادون ذوو وجوه مستطيلة غريبة، يركضون خلف حيوانات كثيرة لم يعرف منها سوى الودّان والغزلان والجاموس البري. في الصخور أيضاً نساء عاريات يحملن على صدورهن أثداء كبيرة... كبيرة جداً ولا تتناسب مع حجومهن. فكان هذا المنظر يضحكه، ويتصوّر أن الثدي يعيق المرأة عن المشي عندما تتحرك، فيستلقي إلى الوراء، ويضحك بصوتٍ عالٍ يتردد صداه الخفي في الكهوف المجهولة.

ثمّ اكتشف رسوماً أخرى وهو يتسلق الجبال خلف المعيز. رأى في الجدران الصخرية وجوهاً بشعة كوجوه الغيلان وحيوانات قبيحة لا توجد في الصحراء. وأدهشه كيف أن أمه لم تحدثه عنها من قبل حتى في الخرافات. كما لم يسمع عنها من أبيه قبل أن يهلك في تلك المطاردة الفظيعة خلف الودّان المسكون.

أمه قالت:

ـ إنهم سكان الكهوف القدماء.. الأجداد الأوّلون.

ـ ولكنك قلت إن الكهوف مسكونة بالجنّ؟

رمقته باستغراب. ابتسمت ثم تمايلت يميناً ويساراً وهي تخضّ قربة الحليب بين يديها.

قال بإلحاح:

ـ هل أجدادنا القدماء جنٌّ؟

كتمت ضحكة، ولكنه ضبطها في عينيها. عاود سؤاله، فنهرته بضيق:

ـ اسأل أباك.

سأل أباه، فضحك، وقال:

ـ ربما كانوا من الجنّ، ولكن من جنّ الخير. الجنّ مثل الناس، ينقسمون إلى قبيلتين: قبيلة الخير وقبيلة الشرّ. نحن ننتمي إلى القبيلة الأخرى... قبيلة الجنّ التي اختارت الخير.

ـ هل لهذا السبب لا نجاور أحداً؟

ـ نعم، لهذا السبب. إذا جاورت الأشرار لحقك الشر. الإنسان الذي يفضّل الخير لا بد أن يهرب من الناس حتى لا يلحقه الأذى. وكذلك يفعل هذا الفريق من الجنّ. سكنوا الكهوف هرباً من الشرّ منذ قديم الزمان. ألا تسمعهم وهم يتحاورون في الليالي المقمرة؟

تدخلت أمه:

ـ لماذا تخيفه بمحاورات الجن الليلية؟ الأجدر أن تحلب الناقة وتأتيني بالحليب قبل العشاء.

ضحك الأب وهو ينهض ليحلب الناقة، فالتفت أسوف إلى أمّه وقال:

ـ أنا أسمع محادثات الجنّ في الكهوف كل يوم. يقولون أشياء مدهشة ويخطر ببالهم في بعض الأحيان أن يغنوا. أنا لا أخاف الجنّ.

ضحكت، وألقت بأعواد الحطب في النار.

وواصل التسلّي بوجوه الجن في كهوف الجبال.

يهرب من الرمضاء، ويحتمي بتجاويف الصخور لاهثاً. يستلقي بعض الوقت، ثم يزحف إلى الجدار الصخري، ويبدأ يزيح طبقات الغبار حتى يكشف الخطوط المحفورة في الأحجار. يستمر في مسح الجدران الصمّاء حتى تطل الوجوه المقنعة أو المستطيلة أو تتضح الحيوانات الهاربة من سهام

الصيادين المقنّعين: ودّان وغزلان وجاموس وحيوانات كثيرة أخرى، ضخمة الحجم، وطويلة السيقان، لم يشاهدها في صحراء اليوم.

ثم أصبح يطلق على الأودية والشُعب والجبال أسماء الأشباح المرسومة على صخورها: فهذا وادي الغزلان، وتلك شعبة الصيادين، وذلك جبل الودّان، وذلك سهل الرعاة، حتى اكتشف الجنّ الأكبر، العملاق المقنع، المنتصب بجوار ودّانه المهيب ميمماً صوب القبلة، ينتظر الشروق، مكبّراً لصلاة أبدية.

يومها طارد أشقى معزاة في القطيع. انشقت عن بقية الماشية، ونزلت وادي متخندوش الموحش، فركض وراءها حتى أدركها عند مصب الوادي في «آينسيس» المجاور ليكوّنا معاً نهراً عميقاً، مهيباً، واحداً، يواصل مسيرته الشاقة عبر الصحراء القاحلة، متوجهاً صوب سهول «آبرهوه». هناك تقوم مجموعة من الكهوف، تتوّجها الصخور الضخمة. ويحدّ هذه الصخور تلك الصخرة العالية التي تقف كبناء يصعد صوب السماء، كنصب وثني شيّده الآلهة. يغطي الجن المقنع، مع ودّانه المقدّس، القطعة الحجرية الهائلة من القمة حتى الأسفل. وقف طويلاً يتفرج على اللوحة. ثم حاول أن يتسلق الصخور كي يلمس قناع الجنّي الضخم فلم يستطع.

الطريق إلى الصخرة محفوف بالأحجار الوعرة.

حاول مرة أخرى التشبّث بالصخور الملساء، فانهارت تحت قدميه مجموعة من الأحجار، فتهاوى وسقط في الوادي على ظهره.

ظل يتلوّى من الألم، وزحف على أربع محاولاً أن يستظلّ بشجرة طلع خضراء عالية تقف في قلب الوادي.

قلبه يدقّ بعنف، وجسمه ينزف بالعرق. وصل إلى الشجرة، فاختفى الظلّ.

برغم دهشته من اختفاء ظل الشجرة إلا أنه استلقى تحتها وانتظر غروب الشمس بأشعتها القاسية.

في اليوم التالي، اكتشف أن المعزاة الشقية التي خرجت عن القطيع وقادته إلى كهف الجن الأكبر، قد خنقها الذئب في تلك الليلة، فتذكّر كيف تخلّت عنه الطلحة وهرّبت ظلّها عند لجوئه إليها بعد سقوطه من الصخرة.

الصلاة أمام النصب الوثني
(العسّاس)

أنهى صلاته، وألقى برأسه إلى الوراء متابعاً الجدار العملاق المنتصب فوق رأسه. كبير الجنّ يباركه. نظرته الغامضة من خلف القناع تنطق بالرضى والسكينة. والودّان المهيب، المتوّج بقرنين ملتويين، أيضاً يوافق إلهه ويوحي بأنه قبل الصلاة وفاز برحمة رب المعبد.

لم يدر «أسوف» أنه أخطأ الاتجاه، فلم يوجه ركعاته نحو الكعبة وإنما نحو الصنم الحجري المنتصب فوق رأسه، في قعر الوادي العميق.

اقترب هدير السيارة.

نهض ليضمّ شتات المعيز قبل وصول السيّاح، وقبل حلول المساء.

المعيز انتشر بعضها في الوادي المجاور في حين تسلّق بعضها الآخر أعالي الجبال، يبحث عن العشب بين الصخور، ويطارد جديانه الشقيّة بالطاقة والنشاط.

قدّر أنه يستطيع أن يعيد المعزات الشاردة ويجمّع القطيع قبل وصول الضيوف. اقتراب هدير المحرك في الصحراء لا يعني اقتراب السيارة. الأصوات في الصحراء تخدع وتوهم. في الصباح المبكر وعند حلول المساء، يقرّب السكون أبعد صيحة، ويصنع منها صرخة وضجة.

تذكر عندما جاء رجال مصلحة الآثار منذ سنوات بقافلة من السيارات.

قضوا ليلة في متخندوش يرافقهم عجوز طلياني أشقر قالوا عنه إنه عالم كبير في الآثار: طويل القامة، نحيل الجسم، أشيب، يحمي بصره من نور الشمس بنظارات كبيرة سوداء، ويدوّن الملاحظات في دفتر لا يفارق يديه. ظلّ يتقافز طوال النهار بين الصخور كما تتقافز الجديان الشقية. كان خفيف الحركة، سريع الخطوات، يتسلق الجبال برشاقة لا تتناسب مع سنّه.

تعشوا شاة غزال جلبوها معهم من «مساك ملّت». وفي الصباح أهدوا له علب السردين والتُنّ والحليب المعلّب ورغيف خبز أبيض، وقال له موظف الآثار: «أنت من اليوم حارس وادي متخندوش. أنت عيوننا في الوادي. سوف يأتي بشر كثيرون من مختلف الأجناس والأديان لمشاهدة الآثار. عليك أن تراقبهم. لا تدعهم يسرقون الأحجار. لا تسمح لهم بتخريب الصخور. هذه الصخور ثروة كبيرة. هذه الرسوم مفخرة بلادنا. افتح عينيك. إنهم نهمون وطمّاعون. يسرقون أحجارنا ليبيعوها في بلادهم بالآلاف، بالملايين. لا تغفل عنهم. إيّاك. أنت العسّاس». ثم لوّح بيده يائساً، وأخرج من جيبه عشرة جنيهات، ودسها في جيب ثوبه الفضفاض، وقال: «هذا عربون. سوف ندفع لك شهرياً. ستتقاضى من المصلحة مرتباً شهرياً. أتعرف ماذا يعني أن تتقاضى مرتباً من الحكومة؟». لوّح بيده مرة أخرى، وتحوّل اليأس في عينيه إلى شيء أشبه بالشقاء.

أعاد له أسوف العشرة جنيهات، وقال إنه لا يعرف ماذا يعمل بها. قال: «أنا أحرس الوادي. أنا أحرس كل وديان مساك صطفت بدون فلوس. ماذا أفعل بالفلوس في مساك؟».

ضحك الرجل بعصبية. قال محاولاً أن يقنعه: «ولكن هذا لا يجوز. لا بد أن تتقاضى فلوساً إذا كنت موظفاً. هذا حقك. هذا من الحكومة. مرتب. أنت عسّاس. أنت موظف. كيف أشرح لك هذا؟».

قدّم له المزيد من المعلبات، وغادر الوادي مع جماعته. ولم يرهم منذ ذلك اليوم.

يذكر فقط نظرة موظف الآثار. هل هي شفقة؟ هل هي شقاء؟ هل هي عجز؟ هل هي الشفقة الممزوجة بالشقاء لأنه عجز أن يقنعه بتقاضي المرتب؟ كان الموظف متعباً وعاجزاً.

ربما كانت أول رحلة له عبر الصحراء، فأتعبته الصحراء.

الطلياني يفوقه حيويّة ونشاطاً واهتماماً بالأحجار.

منذ ذلك اليوم، بدأ الزوّار يتقاطرون على الوادي المنسي منذ آلاف السنين، يأتون جماعات بمعدّل كل أسبوعين، وأحياناً كل شهر. وقليلاً ما يغيبون لأكثر من شهر.

وكانوا جميعاً من الأجانب، رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباباً. من مختلف أجناس النصارى. يركعون أمام الجنّي الأكبر، ويلتقطون الصور أمام المعبد، ويقضون ليلة في بعض الأحيان ثم ينطلقون عائدين بعد أن يتركوا له المعلبات والجبن والحليب المجفف أو المعلب والشاي والسكر والبسكويت. كانوا كرماء... أكرم من مصلحة الآثار في الواحات.

وكثيراً ما سأل نفسه عن سرّ اهتمام النصارى بالرسوم القديمة. وتوصل إلى قناعة تقول إن النصارى يحجّون إلى أوثان متخندوش لأنهم يعتنقون الديانة القديمة نفسها، فهم لا يؤمنون بالنبي محمد، ولا يسجدون نحو الكعبة كالمسلمين، فالخشوع، والضراعة، والابتهال، والاستسلام الذي تنطق به عيونهم تفضحه الإشارات المجهولة التي يرسمونها على وجوههم وهم يتفحصون قامة ملك الوادي العملاقة وودّانه المقدس الذي ينتصب بجواره متأملاً الأفق البعيد.

النصارى يقفون أمام العملاق المقنّع كما يقف المسلمون بين يدي الله.

ولكن أباه قال إن الجنّي المقنع جدّه أيضاً.

زائـــر الغســـق

استطاع أن يحشر الأغنام في الكهف الكبير قبل أن يصل الزوار.

تصاعد الهدير، ورأى زوبعة الغبار ترتفع في الأفق عبر السهل البسيط. علا ثغاء الماعز، وتقـافزت الجـديان في مـدخل الكهف احتجـاجاً على الحبس المبكر. اختفت الشمس خلف الجبل، ولكنهـا استمرت تسكب أشعتها الحمراء على السهل المعاكس. عند الغروب يـروق للشمس أن تكسو الصحراء بغلالة حمراء من الشعاع.

بدأت السيارة تهبط الوادي، توقفت في القاع بجوار أشجار الطلح. في المجـرى تناثـرت شجيرات بـرية احتفـظت بالاخضـرار منذ سيـول العام المـاضي. من السيارة نـزل رجلان، متفـاوتان في القـامـة وفي الجسم. أحدهما طويل، والثاني قصير. الطويل نحيف، والقصير بدين. متقاربان في العمر. القصير يبدو أكثر حيوية ونشاطاً بـرغم بدانتـه. انهمك يـزيح حمولة السيارة ويلقي بها على الأرض بين الشجيرات الخضراء تحت طلحة عالية. أوان وصحون وصناديق خشبية وأكياس الخيش وخيمة كبيرة. انشغل في نصب الخيمة، وتقدّم منه الرجل الآخر ذو القامة الطويلة. لوّح له من بعيد بيده محيياً، فتشجع أسوف وتقدّم نحوه. التقيا في منتصف المسافة.

شدّ على يده بحرارة، وقال ضاحكاً:

ـ إذن هو أنت الجنّي أسوف الذي آثر العيش في الخـلاء الخالي عن

معاشرة الناس؟ حدثونا عنك في وادي الأجال.

لم يعلق أسوف. وكي يداري ارتباكه، سارع يعدّل من وضع لثامه على وجهه. سأل الرجل وهو يتفقد الجبال بنظرة شاملة ويضع يديه في وسطه:

ـ هل يزورك سياح كثيرون هنا؟ سمعنا أن الأجانب سبقونا إلى كل مكان في الصحراء. أينما ذهبنا وجدنا أنهم قد سبقونا. الأجانب شياطين.

في حزامه، لاحظ أسوف السلاح الأسود.. ذلك السلاح الصغير الذي يطلقون عليه «مسدس».

قال:

ـ نعم. لم يأت إلى متخندوش فيما مضى سوى النصارى. أنا أرى المسلمين أول مرة.

ضحك الرجل، وقال معقباً:

ـ ومن قال لك إننا مسلمون؟

ارتبك أسوف مرة أخرى، فسارع يداري ربكته بشدّ أطراف اللثام على وجهه.

لاحظ الرجل ضيقه، فطمأنه:

ـ أنا أمزح. نحن مسلمون. برغم أننا لا نصلّي ولا نزكّي ولم نحج إلى بيت الله مرة واحدة.

تردد أسوف قبل أن يسأل:

ـ هل جئتما لمشاهدة الآثار؟ أستطيع أن أدلّكما على أماكن لم أرها للنصارى. لم يرها أنس من قبل.

غرق الرجل في ضحكة طويلة، قطعها وقال ساخراً:

ـ الآثار؟ وما عسانا نفعل بالآثار؟ ألا تعرف أننا بحد ذاتنا آثار؟ نحن مثلك آثار تزار. يأتي الأوروبيون من وراء البحار ليتفرجوا علينا ويشاهدوا حياتنا. فهل رأيت أثراً تهمّه الآثار؟ ها.. ها.. ها...

تصاعد الدم إلى وجنتي أسوف البارزتين، ولم يدر ماذا يفعل بيديه وعينيه. انتقل الانفعال إلى أطرافه، فبدأ يرتجف.

قال الضيف:

ـ الحقّ أننا جئنا للبحث عن آثار أخرى... آثار الودّان. هل تستطيع أن تدلّنا على آثار الودّان؟ يقولون إنك تعرف أين يعشعش الطير في «مساك صطفت».

التفت أسوف نحوه، فرأى في عينيه بريقاً غريباً. قال وهو لا يزال يرتجف:

ـ من قال؟ الودّان انقرض من زمان مثله مثل الغزلان. أنا لا أعرف آثار الودّان.

استمر يرتجف. لم يعجب الرجل بردّه، فكتم الحنق، ورمقه بشك ثم قال:

ـ حسناً. إذن ستدلنا على أثر الآثار ما دمت تؤكد أنك لا تعرف أين يسكن الودّان.

اقتربا من الخيمة، وأضاف الرجل:

ـ ولكنّي لا أستطيع المبيت بدون لحم. كيف سأتعشّى بدون لحم؟

ضحك زميله البدين، وعلّق دون أن يصافح أسوف:

ـ عليك أن تصدقه. لم ينم ليلة واحدة بدون لحم منذ أن ولدته أمّه. يقال إن أمه ولدته وفي فمه قطعة من اللحم. لحم خروف ها.. ها.. وأنا

الذي عاشرته كل هذا العمر أستطيع أن أؤكد أنه يأكل نفسه إذا لم يجد ما يأكله في الليل. ها.. ها.. أحذرك من النوم بجواره إذا بات بدون لحم. ربما زحف نحوك وأكلك. ها.. ها...

تمتم أسوف بسذاجة:

ـ يا حفيظ. إلى هذا الحد تحب اللحم؟

قال طويل القامة وهو يطقطق بأسنانه، وعيناه تلمعان ببريق غريب:

ـ وهل في الدنيا ألذّ من اللحم؟ كل شيء يبدأ وينتهي باللحم. المرأة أيضاً لحم. هل سبق لك وذقت لحم المرأة؟

هزّ أسوف رأسه بالنفي، وتألقت عيناه بالقلق، فأضاف الرجل ضاحكاً:

ـ أنت مسكين إذن. لم تأكل لحم المرأة. إنه ألذّ اللحوم، باستثناء لحم الغزلان، باستثناء لحم الخرفان، باستثناء لحم الودّان. ها.. ها.. كل اللحوم لذيذة هل تذوقت لحم الـ...؟

صرخ أسوف في هلع:

ـ لا. لا. أنا لم أذق اللحم. أنا لا آكل اللحم.

ـ لا تأكل اللحم؟ وماذا تفعل بحياتك إذن؟

تفكّر الرجل قليلاً ثم قال:

ـ ولكن معك حقّ. من لا يأكل اللحم لا بد أن يبتعد عن الناس. ليس من العبث أنك اخترت الحياة في هذا الخلاء الخالي. لأن من لا يأكل اللحم لا يحيا. أنت لست حيّاً. أنت ميّت.

تراجع أسوف خطوتين إلى الوراء، وقال كأنه ينوي الهرب:

ـ يقولون إنكم أكلتم كل خرفان الدنيا في الشمال. هل هذا صحيح؟

ـ ها.. ها.. اسمع ما يقول. صحيح. صحيح.

ـ يقولون إنكم أبدتم كل قطعان الغزلان في الحمادة الحمراء. هل هذا صحيح؟

ـ ها.. ها.. تعال، اسمع ما يقول. صحيح. أفخر أنني أنا الذي أكلت آخر غزالة في صحراء الشمال. هل لديك اعتراض؟ هل في هذا ما يؤذي؟

صمت أسوف لحظات، وقال حائراً:

ـ ليس في هذه الصحاري ودّان. الودّن انقرض من زمان. لديّ المعيز. أستطيع أن أذبح لك معزاة.

ضحك الرجل حتى استلقى إلى الوراء. برز السلاح من حزام خصره ثم بصق عدة مرات على الأرض، وقال بوحشية:

ـ تفو... و.. و.. وهل تسمّي لحم المعيز لحماً؟ إنه عفن تعافه الكلاب وتخجل من أكله الذئاب. أنا لا آكل لحم الماعز. أنا لم آكل لحم الماعز في حياتي كلها. ولم أضطر أن أفعل ذلك في أسوأ أيامي حظّاً.

وسارع يدسّ رأسه في شجيرة يابسة، وبدأ يتقيأ:

قال له البدين معاتباً:

ـ هل رأيت ماذا فعلت بضيفك؟ إنه يعاف لحم الماعز.

قال أسوف بسذاجة:

ـ وماذا أفعل؟ ليس لديّ غير المعيز.

ـ لا تذكر له المعيز مرة أخرى. المصابون بمرض حب اللحم أمثاله لا يأكلون لحم الماعز في العادة. كثيرون مثله في الشمال.

بدأ بفتح الصناديق، ويخرج محتوياتها. لاحت ابتسامة خبيثة في عينيه وهو يقول:

ـ الأجدر بالمضيف أن يرينا كهوف الودّان بدل أن ينحر المعزات العجفاوات. أين يختبىء الودّان في هذه الجبال؟ لن يخفى عنك معقل الودّان إذا كنت تخبر خطوط الإنسان الأول في الصخور وتتبادل الحوار مع الجنّ في الليالي المقمرة. هكذا قالوا لنا. البدوي الوحيد صديق حميم للجنّ.

ضحك دون أن يرفع رأسه عن الأواني والصحون والأمتعة، ثم غمز لرفيقه، وتوجها معاً ناحية الجنوب، عبر التواءات الوادي، بحثاً عن الحطب. راقبهما وهما يتحدثان بصوت مكتوم وينحنيان على الأعواد اليابسة.

عاد إلى أغنامه، وهشّ الجديان، وأعادها إلى الكهف الكبير. رآهما يتفقدان الرسوم على الصخور العالية بلا مبالاة. يشيران بين الحين والآخر نحو اللوحات، ويغرقان في قهقهات عالية. آكل اللحم يطلق تعليقات ساخرة، فيستجيب لها رفيقه البدين بالضحكات. صدى الضحكات يتردد في الجبال الغربية العالية.

عادا بحزمة من الحطب. ألقاها البدين بجوار الخيمة، وصرخ نحو أسوف:

ـ اسمع. شن سمّاك ربي؟ سوف نذهب لتفقد الوديان القريبة قبل المغيب. رد بالك من المتاع والزاد.

قفزا في السيارة، وانطلقا عبر الوادي، في الجهة الأخرى المؤدية إلى «أبرهوه». تسللت الشمس خلف الجبال المتوجة بالصخور العمودية، فانتشرت الظلال، في السهل المقابل، كطابور من جنود الجنّ.

خيّل إليه أن ضحكاتهما وهمساتهما ما زالتا تترددان في صخور الوادي... ضحكات وهمسات أزعجته دون أن يفهم السبب.

أحس بقلبه.

شيطان اسمه الإنسان!

القلب دليل مَنْ لم يعاشر الناس في فهم الناس.

القلب هو النار التي يهتدي بها البدوي في صحراء الدنيا كما يهتدي التائه في الخلاء بنجم «ايدي». كل النجوم تتحوّل وتتنقّل وتبدّل مكانها وتغيب، أما هو فيبقى ثابتاً حتى الصباح.

«ايدي» مثل القلب لا يخدع.

أبوه أيضاً أوصاه بالقلب قبل أن يموت.

كان يجلسه أمامه في ضوء القمر في ليالي الصيف، ويلقنه سورة الفاتحة كي تساعده في الصلاة. كل يوم عليه أن يحفظ آية من الآيات. وعندما حفظ السورة كلها، قال له: «عليك بقلبك. ماذا ينفع ابن الصحراء إذا أضاع قلبه؟ من يضيّع قلبه يضيع بين الناس، لأن الصحراوي لا يعرف مكائد الناس».

لقنه أيضاً سورة «الإخلاص» قبل أن يموت بتلك الطريقة الفظيعة. عاشوا في ترحالهم وتنقلهم وحيدين في الصحراء. لم يذكر منذ أن ولد أنهم جاوروا أنسياً واحداً. يذكر في طفولته كيف نزلت عليهم عائلة نزحت من «تادرارت» واستقرت في الأودية العليا عندما أنعمت السماء على «مساك» بالأمطار السخيّة من ذلك العام. أفاق في فجر اليوم التالي على هرجة

مبكرة، فتح عينيه، فوجد والده يحزم الأمتعة، ويشدّ الرحال، ويروّض الجمال استعداداً للسفر. لم توقظه هرجة الحركة ولملمة الأواني والصحون. أيقظته مشادّة حامية بين الأم والأب. عرف أن الخلاف أثارته تلك الرحلة المفاجئة إذ رأت الوالدة التي تقيم وزناً كبيراً للعار والعيب وآراء الناس في الناس أنها استفزاز لضيوف الوادي الجدد وعيب في حقهم. وسمع الوالد يقول غاضباً: «أجاور الجنّ ولا أجاور الناس. أعوذ بالله من شرّ الناس». وكثيراً ما سمعه في المراعي يردد موّالاً قال إنه سمعه من أفواه الصوفية في زوايا «العوينات»:

الصحراء كنز. مكافأة لمن أراد النجاة من استعباد العبد وأذى العباد.

فيها الهناء، فيها الفناء، فيها المراد.

وكان يسبل جفنيه، ويتمايل يميناً ويساراً، مقلداً شيوخ الصوفية عندما يقعون في نوبات الوجد.

رافقه في رحلاته إلى المراعي وإلى الصيد. علّمه كيف يروض الجمال المتوحشة ويدربها حتى تصبح مطيعة وسريعة. وفي «مساك صطفت» درّبه على صيد الودّان، وقضى به الأيام في «مساك ملّت»، يعلمه التصويب بالبندقية. يوقظه مبكراً ليغزو قطعان الغزلان التي ترتع في المراعي والسهول في عتمات الفجر.

ويطيب له في الليل أن يحضّر الشاي الأخضر، ويحدثه عن أخلاق الحيوانات والطيور في الصحراء. يزيح الأحجار عن الأرض، ويتوسد التراب، ويكشف عن فمه ولحيته الموشاة بشعيرات الشيب، ويبتسم له قبل أن يقول:

ـ ماذا تظن؟ ماذا يقول الغزال لنفسه وهو يرى عدو الكائنات؟ يقول: السهل. وماذا يقول الودّان عندما يتعرض لبلاء عدو الكائنات؟ يقول:

الجبل. الجبل للغزال مصيدة، والسهل للودّان مصيدة.

ثمَّ يرفع رأسه إلى النجوم، ويغنّي موّالاً حزيناً قبل أن يعود ويقص عليه قصته مع الودّان. قال:

ـ أدركت ودّاناً تائهاً في العراء الفسيح، فطاردته بالمهري حتى هدّه التعب. أتعرف ماذا فعل عندما خارت قواه؟ ولّى على أثره وهاجم المهري. وجه له نطحات قاسية بقرونه الشرسة فأجفل المهري وعاد على عقبيه. اضطررت أن أترجل عن المهري وأهجم على الحيوان المجنون وليس في يدي سوى حبل الليف. حاولت أن أخنقه بالحبل فوجّه لي طعنة طرحتني على الأرض. أمسكت بقرونه الطويلة، فماذا اكتشفت؟ لم أر أقوى من قرون الودّان. يا ربي ما أقوى قرونه! نزعني عن الأرض وألقى بي بعيداً بحركة واحدة. ثم لاحقني ليسحقني بسلاحه الشيطاني فتلافيت سكاكينه في آخر فرصة. هرس الأحجار بوحشية ثم رفع رأسه نحوي فرأيت في تلك اللحظة الصغيرة الحقد والشقاء في عينيه، ورأيت العناد والشراسة وأشياء كثيرة لم أفهمها. الزبد يعلو شفتيه، وشعره أشيب وملوث بالروث والطين. أدركت أني لن أستطيع أن أتمكن منه بيدين عاريتين، فقفزت وركضت نحو المهري لأخطف البندقية المعلقة في السرج.

صمت فجأة، ونظر في ظلمات الخلاء الكثيفة وفي عينيه شقاء مفاجىء. نهض وعقد يديه حول صدره دون أن يشيح بوجهه عن الظلمات والفراغ.

قال:

ـ نسيت أن أقول لك إن معركتنا كانت تدور في واد مقطوع عن الجبال. الودّان يعرف أنه لن يستطيع الإفلات لابتعاده عن حصونه في الجبال. في وسط الوادي تقوم ربوة تعلوها صخور ملساء عالية. وعندما شاهدني احتكم إلى البندقية، تسلق الصخور في حركة خاطفة، وقفز إلى الأرض، فكسر رقبته. سال الدم من خياشيمه، ومات من دون أن تختفي تلك النظرة

الغريبة عن عينيه المفتوحتين: مزيج من الشقاء والحقد والعجز.

تساءل أسوف:

ـ وهل حللته؟ هل ذبحته؟

قال دون أن يلتفت:

ـ كيف أذبح حيواناً انتحر؟ ثم أنه أسلم الروح حالاً. قلت لك انكسرت رقبته. جيفة.

زفر، وزوّد النار الخابئة بأعواد الحطب، وقال بحزن:

ـ لا أستطيع أن أنسى ذلك الودّان المسكون. من الصعب أن أنسى نظرة الفزع واليأس التي رمقني بها عندما رأى البندقية في يدي وفقد الأمل في النجاة. مسكين الودّان المسكون!.

انتظر حتى هلّ القمر، وحكى له كيف أن الودّان هو روح الجبال. كانت الصحراء الجبلية في قديم الزمان في حرب أبدية مع الصحراء الرملية. وكانت آلهة السماء تنزل إلى الأرض مع الأمطار وتفصل بين الرفيقين وتهدىء من جذوة العداوة بينهما. وما أن تغادر الآلهة ساحة المعركة وتتوقف الأمطار عن الهطول حتى تشتعل الحرب بين العدوين الخالدين. وفي يوم غضبت الآلهة في سماواتها العليا وأنزلت العقاب على المتحاربين. جمّدت الجبال في «مساك صطفت»، وأوقفت تقدّم الرمل العنيد في حدود «مساك ملّت». فتحايل الرمل ودخل في روح الغزلان، وتحايلت الجبال من جهتها ودخلت في الودّان. منذ ذلك اليوم أصبح الودّان مسكوناً بروح الجبال.

سأله أسوف في تلك الليلة معلقاً على قصة الأرواح:

ـ ولكن الغزال والودّان لا يتحاربان الآن.

أطلق ضحكة، واستلقى على الأرض، وقال بلغة غامضة وهو يراقب القمر السحري الطالع من جوف الظلمات:

ـ لأن الله أنزل على الأرض بلوى أكبر قاتلت الاثنين معاً. جاء الإنسان، وأصبح للغزلان والودّان عدو واحد. الآلهة ملّت الشكاوى الطفولية: تارة تتصاعد الرمال وترفع أمرها إلى السماوات مدعية أن الجبال هي التي بدأت الاستفزاز، وتارة تقصدها قمم الجبال وتشكو غزوات الرمال، فغضبت الآلهة وعاقبت المتخاصمين بشيطان اسمه: الإنسان. أوكلت إليه الأمر فجاء وأقام في الوادي الفاصل بينهما. هنأ بال الآلهة ولم تسمع شكوى منذ ذلك اليوم.

ثم التفت إليه، وقال باللغة الخفية نفسها:

ـ فكيف أجاور الإنسان؟ أمّك تعاتبني وتريدني أن أعود إلى جيرة القبيلة في «أبرهوه». تشكو من الوحدة وتبكي في الليل. أنت تعرف أنها تبكي في الليل وتقول إني أنا الجنّي... أنا الشيطان، وليس الناس. ولكني لا أستطيع أن أسكن بجوار أحد. هكذا علمني جدّي، وهكذا يجب عليّ أن أعلمك. لا أريد سوى الأمان. هل تفهم؟

ثم رفع صوته بذلك الموّال الحزين.

«.. ويتشاءم أهالي تاسيلي من صيد الموفلون (الـودّان). فيتمتم الصيّاد بـالتعاويـذ السحرية ويضع حجراً على رأسه، ويتقافز على أربع قبل أن ينطلق في رحلة الصيد».

هنري لوت

«لوحات تاسيلي»

ثمـــن العزلـــة

ولكن التمتع بنعيم العزلة في الصحراء مع الأب لم يدم طويلاً. فذهب العجوز في رحلة لصيد الودّان في جبال «مسيس» الغربية، وقرر ألّا يعود. انتظراه عدة أيام ثم أعلنت الأم عن قلقها:

ـ أبوك لا يغيب بلا سبب. لقد مضى أكثر من أسبوع على رحيله.

تزود بالماء والتمر، واقتفى أثره، لم يكن والده مسلحاً، ولهذا ضحّى بالغزلان في «مساك ملّت»، واضطر إلى أن يلاحق الودّان المسكـون في رؤوس الجبال القاسية. أصبح يتهيّب صيد الودّان منذ تلك الحادثة، ولا يتحرك باتجاه القمم المهيبة إلا بعد أن يقرأ كل الآيات التي يحفظها من القرآن ويردد تمائم السحرة الزنوج بلغة الهوسا(*) ويعلّق على رقبته التعاويذ المحصنة في جلود الثعابين التي جلبها له تجار القوافل من العرّافين في «كانو». يجلس يوماً قبل السفر يتمتم بتعاويذه ويصوم عن الكلام ولا يرد على مساءلاتهما وينام خارج الخيمة حتى لا يضطر إلى تبادل الكلام مع أحدهما لينطلق في الفجر على جمله فارغ اليدين. نعم. أعـزل، فارغ اليدين، لأن رصاصات البندقية القديمة نفدت، ومواعيد رحـلات قوافـل التجار إلى السودان أو أغاديس تباعدت. تمضي شهور دون أن تمر قافلة

(*) الهوسا: لغة قبائل الهوسا التي تقطن شمال نيجيريا.

قادمة من بلاد السود أو متجهة إليها، وصلاته مع أهل الواحات في وادي الآجال أو غات أو العوينات أو مرزق مقطوعة، خاصة بعد انتشار أنباء زحف الطليان على السواحل ونيتهم التوغل جنوباً لغزو الصحراء. هذا رفع سعر الرصاصة، وجعل تداول السلاح بين الأهالي عملاً محظوراً ومحفوفاً بالخطر، وأصبح كل بدوي في الصحراء يدسّ الرصاصة الواحدة في بؤبؤ عينيه، وينتظر ليدافع بها عن أطفاله في تلك اللحظة العصيبة التي سيقتحم فيها العدو حدود الصحراء لأن الطليان إذا دخلوا الصحراء فقد دخلوا كل خيمة. وبرغم عزلتهم في البر الجنوبي إلاّ أن الريح استمرت تنقل إليهم أخبار الغزاة في الشمال، كما نقلت دائماً الشائعات بين القبائل الصحراوية من زواج وطلاق وفضائح ومواليد جدد ووفيات. لا يخفى شيء في الصحراء، مهما اعتزلت في الصحراء.

ولكن الوالدة همست له في غيابه: «لا تصدّقه. لقد خبأ بضع رصاصات في كهف الصيادين. هو بخيل في إنفاق الرصاص». ضحك يومها وتذكر ما قاله له مرة: «الرجل في الصحراء لا بد أن يقتصد في شيئين: في الماء، وفي الرصاص». وقال أيضاً إن الماء والرصاص في الخلاء مثل الهواء هما عماد الحياة. إذا فقدت أولهما متّ عطشاً، وإذا فقدت الثاني فتك بك عدو.. إنسان أو وحش أو أفعى. الماء والرصاص من مقومات الرجل الوحيد. يمكن أن يتخلّى عن أي شيء إلاّ عنهما. ولم يشكّ لحظتها في أن أمّه على حق. يخبىء الرصاصات في الكهف لليوم الأسود حتى يتمكن من إثبات رجولته، قوته. يطلق رصاصة في وجه عدوه قبل أن يموت، حتى لا يشمت به العدو ويجرجره مربوطاً بحبل مثل الخروف. أن تموت وفي يدك بندقية ليس عاراً. العار أن تموت مثل الخروف. العار أن تقع في يد العدو حياً. أن تقع في الأسر. لا يقع في الأسر إلا الجبان أو الأعزل من السلاح.

ولهذا آثر الأب أن يدسّ قطع الرصاص في كهف الصيادين من باب الاحتياط ويذهب إلى صيد الودّان أعزل، فمات تلك الميتة الفظيعة. لو لم

يحرص ألاّ يقع في يد الأعداء حيّاً وخبأ البارود لليوم الأسود لما مات بتلك الطريقة البشعة.

قضى أياماً يقتفي الأثر. وعندما وجد آثار الصراع مع الودّان في وادي «آينسيس» أحس بالقلق. تتبع آثار المعركة على طول الوادي، فوجد بقع دم لوثت الأحجار، وسقطت قطرات متباعدة على الرمل في قلب الوادي. لم يعرف ما إذا كان المجروح هو الودّان أو الأب. الآثار تظهر وتختفي. تنحرف يساراً ناحية السفح الوعر المغطى بطبقة الأحجار الشرسة السوداء، ثم تعود إلى القاع الرملي حيث تتناثر أشجار الطلح والأعشاب البريّة. تحت طلحة عالية اشتدت المعركة. الآثار كثيفة وكثيرة ومتداخلة. هل حاول العجوز أن يربط الحيوان المتوحش إلى جذع الطلحة العالية ثم انتصر الودّان وجرجره عبر الوادي بضع خطوات؟ ثم... يا ربي.. هل أمسك بقرنيه؟ هل فعل ما حذره هو نفسه من فعله دائماً؟ قال إن لا شيء يثير جنون الودّان مثل الإمساك بقرنيه. مهما كنت قوياً، ومهما راودك الأمل في الانتصار عليه فإنك ستخسر المعركة إذا لجأت إلى هذه الحيلة. جنونه في قرونه، كل وحشيته الخفية تستيقظ وتظهر، فيبدأ في الهجوم والعدوان. الودّان يحاول الإفلات الآن.. انحرف نحو الجبل. الوادي ازداد عمقاً، والجبال ازدادت ارتفاعاً. آه.. إنه يستدرجه إلى تلك القمة البشعة الغامضة.

دقّ قلب أسوف وهو يرفع رأسه إلى القمة العالية، وأحس أن ثمة شيئاً سيحدث هنا.. تحت هذه القمة أو فوقها أو على سفحها. آثار المشادّة اختفت. ركض عبر الوادي الضيق المخنوق بين الجبلين وهو يلهث. ظلاّل القمة المشؤومة تخترق المضيق الضيق. انحرف يساراً، وصعد السفح الشرس في وثبات سريعة. خيل إليه أن رائحة غريبة غزت أنفه فجأة. قفز قلبه، واستولى عليه الغثيان والصداع. ازدادت الصخور ارتفاعاً وحدّة وسواداً كلما اقترب من القمة في صعوده الجنوني. كان يتسلق بيديه ورجليه

معاً. ازدادت رائحة العفن. و... تحت القمة المشؤومة بالضبط، بجوار صخرة مستطيلة امتدت عبر السفح بضعة أذرع، وجد العجوز راقداً على ظهره، وجهه يتجه نحو السماء، ومقلتاه فارغتان، وملامحه زرقاء، يحوم عليه ذباب أزرق، كبير الحجم. لا أثر لنزيف، ولا بقعة دم، باستثناء خدوش في يديه الممدودتين بموازاة جسده.

لقد كسر الحيوان المسكون رقبته كما كسر هو يوماً رقبة ذلك الودّان الذي انتحر.

«في جنوب ليبيا، أعالي النسامونيين، يعيش الجرامنت في بلاد غنية بالوحوش. وهم قوم يهربون من الناس، يخشون مخاطبتهم. لا يستعملون أي سلاح. ولا يعرفون الدفاع عن النفس».

هيرودوت

البُنـيَّـــة

. . . وكانت له تجربة مع الودّان قاسية أيضاً.

بعد غياب الأب تولّى المسؤولية، يرعى الأغنام، ويتفقـد الجمال في الأودية المجاورة، ويجلب الحطب، ويذهب إلى طريق القوافل ليقايض الماعز مقابل أكياس الشعير والتمر. لم تكن المقايضة أمراً سهلاً لشاب لا يملك لغة يخاطب بها الناس. لا يعرف طباع الناس ولا أخلاقهم ولا تصرفاتهم. ومن أين له أن يعرف وقد عاش طوال عمره معزولاً عنهم، بعيداً، خائفاً منهم. يرعبه العجـز ويخيفه كلما فكر ـ مجرد التفكير ـ في الاقتراب منهم، فكيف بمخاطبتهم أو مخالـطتهم؟ في المرة الأولى وقف بعيـداً، وراقب القافلة الطويلة وهي تسير عبر الطريق الملتوي الذي يخترق الأودية ويصعد الجبال الوعرة، ينحرف تارة نحو اليمين، وتارة نحو الشمال حتى يتوارى في الأفق المجهـول، ليتدفق فيـه طابـور الجمال الصبـور المحملة بالأثقـال والبضائع.

توارت القافلة، ولم يستطع أن يقترب.

عاد إلى البيت مهزوماً، فسمع اتهامات قاسية من الأم. وصفتـه بأنـه بنت، وبكت، وقالت: «الذنب ليس ذنبك. المرحوم هو الذي خلق منك بعيراً يفزعه ظلّ الأنس».

لم ينم طوال الليل. وكان عليه أن ينتظر أسابيع أخرى حتّى تمر قافلة

جديدة وربما شهوراً. ومخزون الحبوب لن يكفيهما لعشرة أيام أخرى. بعد أيام حزم أمتعته، وحوّش أغنامه، وقصد الطريق الذي يربط بين مرزق وكانو. الطريق يبعد مسافة ثلاثة أيام. هناك قرر أن ينتظر، ويتصيّد قوافل التجار. عَسْكَرَ في الوادي، وترك الأغنام ترتع في الشجيرات البرية، وصعد المرتفع ليتفقد الطريق. كان يصعد في اليوم عدة مرات للاستطلاع. وفي اليوم الرابع لإقامته رأى القافلة يراقصها السراب في الأفق البعيد. ربط في عنق المعزاة السمينة الممتلئة كيساً صغيراً مملوءاً بحبوب القمح، وربط في التيس الشرس الرشيق الذي كسر ضلوع الجديان بالنطح والعدوان كيساً ملأه بحبات الشعير. صعد المرتفع، وربطهما إلى وتدين دقّهما في العراء عند طريق القوافل. عاد إلى موقعه في المنحدر، وتحصن بالصخور، وانتظر مرور القافلة.

حاولت المعزاة أن تفلت من المعتقل، وعندما يئست مزقت السكون بالشكوى وبالثغاء. أما التيس الشقي فقد بدا أكثر صبراً، تفقّد الخلاء العاري بنظرات قلقة حزينة، ثم رفع رأسه نحو الأفق، ناحية القافلة، وانتظر قدره.

وصلت القافلة، وتجمع الرجال حول المعزاة والتيس، بحثوا في العراء عن صاحبهما، فخرج من معقله، وسار بمحاذاة الصخور التي تشرف على الوادي. لوحوا له بأيديهم يحيّونه، فرفع يده يرد التحية. شهرها أمام وجهه في الهواء، وأنزلها بحركة سريعة. كان منفعلاً. العرق ينزّ من رقبته وظهره. لم يعرف ماذا يصنع بيديه، فأخفى ارتباكه بتعديل العمامة على رأسه. أشاروا بأن يتقدم نحوهم، ولكنه تظاهر بأنه لم يلحظ الدعوة.

انفصل عنهم أحد الرجال، ومشى باتجاهه، فهزّته الرجفة، ووجد نفسه يقفز ويتوارى خلف الصخور، يتقافز، كالودّان، بين الأحجار، قاصداً الوادي. وقف في السفح لاهثاً، ملوثاً بالعرق والخجل. أمه معها حق. هو

بنيّة. الرجل لا يهرب من لقاء الرجال. الحياء للبنات. أمه قالت ذلك. هو لم يَرَ البنات، ولم ير في عيونهن الخجل. تفوا! خزي! أحس بالحقد لحظتها، ولأول مرة، على أبيه المرحوم. لقد ربّى فيه خوفاً من الناس يكفي كل صبايا الدنيا كي يهربن من الرجال إلى الأبد.

عاد على عقبيه، واختبأ خلف صخرة. رأى الرجال يتضاحكون ويتجادلون. ثم.. تحركت القافلة. انحرف الطريق المتعرج الطويل غرباً حتى غاب في رؤوس الجبال.

حملوا التيس والمعزاة، وتركوا له كيسين متوسطي الحجم: كيس قمح وكيس شعير.

شبح من الهملايا

لم يعد الرفيقان إلّا في صباح اليوم التالي.

أوقفا سيارتهما بجوار الخيمة، ونزل طويل القامة أولاً، أشعث الشعر، شاحباً، ذابلاً كأنه جاء من رحلة طويلة. كأنه عبر الصحراء من تمبكتو حتى جبل نفوسة. تقدّم نحوه، ومدّ إليه يداً قوية، خشنة:

ـ دعنا نتعارف. اسمي قابيل آدم. ورفيقي مسعود. مسعود الدباشي.

أجال بصره عبر الوادي، ثم رفع رأسه نحو السماء، واشتكى جاداً:

ـ الشمس قاسية منذ الصباح. النهار جهنم، يا ربي أين نهرب منك يا شمس الصحراء؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة يائسة، حزينة قبل أن يغير الموضوع فجأة:

ـ تحملنا الشمس ولكن لا نستطيع أن نصمد بدون ودّان.

عقد حاجبيه، وأضاف بغضب:

ـ الجدّ جدّ، واللعب لعب. لقد حرمتنا من لحم الودّان طوال يومين. في حياتي لم أصبر يومين على اللحم.

حاول أن يحتج، أن ينفي التهمة، أن يشرح الأمر. لم يعرف. قال بعد تفكير طويل:

ـ لا يوجد الودّان هنا. ثم.. ثم أن صيده صعب. صعب.

هتف قابيل:

ـ صعب أم سهل هذا شأني أنا. دلّني عليه وسوف ترى!

ـ الودّان لا يعيش إلا في رؤوس الجبال. في أوعر الجبال.

ـ إذن أنت تعترف بوجوده في الجبال.

ارتبك أسوف وتلعثم. قال بعد معركة مع نفسه:

ـ ربما يوجد في الجبال. لا أدري.

مسح العرق بكمٍّ جلبابه، فقال قابيل:

ـ ومن يعيش في هذه الجبال غيرك؟ الأهالي في الواحات حدثونا فقالوا إن «مساك صطفت» مسكونة بإنس واحد وقبائل كاملة من الجنّ والودّان.

ثم التفت إلى زميله، وصاح:

ـ أتسمع؟ الرجل اعترف بوجود الودّان في الجبال.

لم يعرف أسوف ماذا يفعل بنفسه. لعن يوم ولد ويوم سكنه خجل العذارى. لم يعرف كيف ينفي أنه اعترف. لم يجد لغة مناسبة للاحتجاج. كيف يحتج على ادعاءات البشر مَنْ لم يعاشر في حياته البشر؟

جاء مسعود الدبّاشي بشريحة من اللحم المجفف. قال وهو يقدم منها قطعة لقابيل وينهش من القطعة الباقية:

ـ كُلْ نصيبك قبل أن يجن جنونك وتستولي عليك النوبة. لا أريد أن أعاني منك في هذه الصحراء.

ثم وجه كلامه لأسوف:

ـ أتعرف أن الجنّ يستولي على عقله إذا لم يذق طعم اللحم؟

قال أسوف:

ـ أعرف. والدي رحمه الله حدثني بذلك. إدمان اللحم يسبب الجنون. هذا بسبب الإدمان.

تبادل الضيفان نظرة ذات معنى. ثم انفجرا في ضحكة صاخبة. قال قابيل وهو يقتطع قطعة من شريحته ويقدمها لأسوف:

ـ قالوا لنا إنك تعاشر الجنّيات في الكهوف، ولكنهم لم يخبرونا بأنك حكيم أيضاً.

تراجع أسوف خطوة إلى الوراء كأنه يهرب من اللحم. وضع يده على صدره شاكراً، وتمتم باشمئزاز:

ـ لا. لا. أنا لا آكل اللحم.

تبادل الرفيقان النظرات مرة أخرى. قال قابيل باستنكار:

ـ هل أنت جاد؟ وهل هناك في الدنيا إنسان لا يأكل اللحم، باستثناء تلك الأشباح التي سمعنا أنها تسكن أعالي الجبال في الهملايا؟

اقترب منه، وألحّ محاولاً أن يدسّ القطعة في فمه:

ـ كلْ. كلْ. هذا ليس لحم ماعزك العفن. هذا لحم خرفان مقدد، مجفف، طعمه مثل... مثل الغزلان، مثل الودّان.

رفض أسوف وتراجع إلى الخلف. لاحقه قابيل، فأوقفه مسعود:

ـ لا تلحّ على الرجل. ربما كان صادقاً. ثمة أشباح من «الهملايا» في صحرائنا أيضاً.

النّــــذر

. . . وكي يطعم نفسه وأمه، كي يعيش طليقاً في صحراء الله الواسعة، لم يكن لزاماً عليه فحسب أن يغلب نفسه ويجد حيلة يخاطب بها شياطين الإنس، ليقايضهم بالمعزات وينتزع من بين أيـديهم المخيفة التي تشبـه مخالب الوحوش، طعامه من القمح والشعير، وإنما عليه أن يخاطر بمهمة أخرى كتبت على جبين مَنْ قدّر له أن يولد ويعيش في الصحراء: صيـد الودّان.

يحلو للمرحوم أن يقول له في مسامرات ليالي الصيف في العراء: «إذا قررت أن تعيش وحيداً فعليك أن تصطاد الودّان وحيداً. هذا كالعـطش، كالجوع، كالتيه، قدر العزلة، قدر الصحراء. ربنا جعل لكل شيء ثمناً». ولكن الأب تغيّر منذ أن انتحر ذلك الودّان المكابر بين يديه. أصبح مهموماً واجماً كئيباً يكثر من ترديد المواويل الوجدانية الحزينة ويغفل عن مخاطبته عنـدما يتحـدث معه أو يتـوجه إليـه بسؤال. وكثيراً مـا رافقـه إلى جبـال «تادرارت» أو صحاري «مساك ملّت» دون أن يبادله كلمة واحدة. يجلس وراء السرج على المهري وينصت لمواويله الحزينة الطويلة التي لا تنتهي. شيء ما يحرق قلبه يريد أن يطفئه بهذه المواويل. وكانت المواويل تحرقه أيضاً. فيبكي بصمت في مجلسه خلف السـرج. لماذا تعصـر قلبه هـذه الأغاني؟ لماذا تؤلمه بهذه الوحشية؟ هل لأنها تعبّر عن العجز في الصحراء؟ هل لأنها تشعره بقساوة الصحراء؟ هل لأنها تقول إن قدر الإنسان الوحيد

المعزول هو الحزن والشقاء؟ هل لأنها تمزق حجب الوهم وتنطق قائلة إن الإنسان إذا فقد الصلة بالبشر فقد الصلة بنفسه، وإذا فقد الآخرين فقد نفسه وهانت عليه؟ هل لأن المواويل توحي له بأن النجاة والحرية تعنيان الصحراء، والصحراء لا تعني أكثر من الموت؟ هل يبكي لأن مواويل الأب الحزين هي إشارة إلى حياتهم الغريبة في الصحراء الأبدية التي لا يبدو أنه يوجد في الدنيا سواها؟

أم أن هذا كله تخيلاته هو وأن حزن الأب لا يعدو أن يكون ألماً مبعثه أن الحياة القاسية تجبره على أن يصطاد الودّان وهو لا يريد أن يصطاد الودّان؟ صهد القبلي يمتص الدموع التي تسيل ببطء على خديه، والرمال العطشى للرطوبة تلتقط وتبتلع قطرات الدم التي تسيل وتتساقط من شفتيه لأن لا شيء استطاع أن يطفيء أو يمتص اللهيب المشتعل في جوفه، فقد كان يمزّق شفتيه بأسنانه دون أن يشعر. بدأ يدرّبه على الصيد مبكراً. بمجرد أن بلغ العاشرة. وربما كانت سن العاشرة ليست مبكرة لصبيان الصحراء. لم يبدأ بالودّان. علّمه التصويب على الأحجار والصخور في الجبال ثم أقعده خلف السرج على المهري، وقضى به عدة أيام في سهول «مساك ملّت» حيث ترتع قطعان الغزلان. يوقظه في ظلمات الفجر، ويرش وجهه بقطرات الماء البارد كي يفيق تماماً، أو كما يروق له أن يقول كي «يفتح رموش عينيه»، ويجره من يده، وينزل به الأودية الواسعة حيث يكثر الغزال في العتمة. وبرغم أن الصحراء في تلك السنوات كانت تعجّ بالغزلان إلا أن الوالد سنّ لنفسه تقليداً ألا يصطاد أكثر من شاة واحدة في الرحلة. وكان يؤكد أن روح الغزال تقوى وتشتد إذا زادت عن واحدة، تتغلب على حصن القرآن وأحجبة السحرة، ولن تفيد تمائم العرافين ولا تعاويذ الفقهاء. وقد حذره أحد العرّافين المشهورين في «كانو» من تجاوز الحدّ في صيد الغزلان، ووصف زمر السحرة التي تستغفل العباد مدعية أنها تستطيع أن تبتدع تمائم يمكن أن تبيح الإسراف في قتل الحيوانات البرية، ووصفهم

بالمحتالين الذين لا يجدر بالعقلاء أن ينخدعوا بأباطيلهم. كان يثني عليه دائماً ويقول إنه لم يرَ ساحراً أصدق منه. وهذا ما أذاع شهرته في كل الصحراء الكبرى فقصدوه من غدامس حتى تمبكتو، ومن جبل نفوسه حتى أغاديس.

عندما استطاع أن يصيب غزالة في عتمة الفجر كافأه بهدية بديعة: نعل «التمبا» الملوّن، المرسوم بزخارف رسمتها أنامل صبايا «تامنغست» الرقيقة، وشحنتها بالعشق واللهفة للقاء فرسان الأحلام. عواطفهن تفيض من الخطوط والزخارف والرسوم. الفتاة التي صنعت النعل عاشقة. أمّه الخبيرة بنقوش الصبايا على الجلد أكدت ذلك. قالت: «خفقات قلب الفتاة في كفّها. وعشقها بين أناملها. كل العجائز تقرأ هذه الأبجدية سواء كتبت على جلود أو على قماش أو نسجت في خيوط الصوف. هذه لغة لا تفهم حروفها الخفية إلا العجائز الحكيمات».

هذا ما كان مع الغزلان.

أما الأمر مع الودّان فقد اختلف.

فلم يبدأ هذه المغامرة إلا متأخراً جدّاً، بعد أن بلغ الخامسة عشرة. والسبب يرجع إلى تلك العلاقة السرية التي ربطت الأب بالودّان. وهي علاقة غامضة وقديمة سبقت حادثة الانتحار تلك بمدة طويلة. فكلّما طلب منه أن يرافقه لصيد الودّان، تهرب ووجد مبرراً لتأخير الموعد. وكلما ألحّ في تعلم صيد الودّان، ماطله ووجد حيلة يتخلص بها. يذكر في إحدى الليالي الشتوية القاسية كيف اجتمع ثلاثتهم حول الموقد يتدفأون بالنار في كهف «الرعاة»، فوجد فرصة في هذه المواجهة، وعاود طلبه. نظر العجوز في عينيه طويلاً ثم تبادل مع الأم نظرة أطول. ثم نكس رأسه، وأخفى عينيه في ألسنة النار. في عينيه رأى قلقاً لم يلحظه من قبل، وفي عيني الأم أيضاً. وأحس لأول مرة أن في الأمر سراً. همّ بأن يستفهم من الأم عن

السبب، ولكنها سبقته وقالت له في أحد الأيام: «لماذا تلحّ على أبيك أن يذهب بك لقتل الودّان؟ ألا ترى أن ذلك يؤلمه؟». انتهز الفرصة فسأل متلهفاً: «ولكن لماذا يؤلمه؟ أنا لا أفهم شيئاً». لم تبح يومها بالسرّ إلا بعد أن قام مع الوالد بغزوات فاشلة متكررة للفوز بالودّان في الجبال المجاورة. في الرحلة الأولى تتبعا آثار قطيع كامل حتى أدركاه في قاع الوادي. بدأت المطاردة، ولم تسفر عن شيء. توارى القطيع في صخور أعالي الجبال واختفى. لاحظ قبلها أن الوالد لم يدقق التصويب، فأجفل القطيع عمداً. وفي المرة الثانية أدركا أنثى ممتلئة وقفت قبالتهما، فوقف والده، وتبادل معها نظرة خفية، ثم التفت إليه قائلاً إنها حامل، وصيد الحوامل من الأنعام إثم كبير. وعادا على عقبيهما. وفي المرة الثالثة استطاع هو أن يكتشف مأوى ثلاثة رؤوس ترتع في شجيرات تشبثت بالسفح، فاضطر أن يعطيه البندقية. وعندما صوّب «أسوف» سعل الأب بشدّة، فأجفل الودّان، وانطلقت الشياه، واحتمت بصخور الجبل المجاور.

تبادل نظرة مع الوالد، وقال وهو يرد إليه البندقية: «لماذا لا تريدني أن أتعلم صيد الودّان؟ إذا كنت حريصاً على ألا أصيد الودان لماذا تتعب نفسك وتتعبني في رحلات مضحكة؟ لماذا لا تقول لي الحق؟». لم يرد على اتهاماته. طأطأ رأسه، وشد العمامة حول وجهه حتى حجبت عينيه، وعاد به إلى البيت دون أن ينطق بكلمة.

بعدها وجدت الأم نفسها مضطرة إلى أن تعترف له بالحق. بكّر الأب في الخروج لتفقّد الجمال في سهول الصحراء الرملية، فاستوقفته ودعته إلى أن ينتظر. ألقت بأعواد الحطب في الموقد، وشدّت لحافها المبقع بالدهون، وشرعت تمخض الحليب في قربة بين يديها قبل أن تصرح بالسر في اختصار: «أبوك لا يريدك أن تسفك دماء الودّان لأنه نذر نذراً من زمان. قبل أن تولد. كان يصطاد في سفوح جبال «آينسيس» فزلقت رجله ووجد نفسه

معلقاً بين السماء والأرض، يمسك بصخرة ورجلاه تتدليان في الهاوية. فقد الأمل في النجاة، فانتشله نفس الحيوان الذي كان يقاتله وينوي قتله وأنقذه من الهلاك. هل تفهم الآن؟ لقد نذر ألا يقترب من الودّان، ووعد ألا يدرب نسله على صيده. ولكنه جاع. جعنا معاً سنوات الجفاف القاسية قبل أن تولد. كنت حاملاً. فاضطر أن يخالف النذر ويصطاد. . بكى قبل أن يفعل ذلك. سمعته بنفسي يبكي في الليل. في الصباح ذهب وعاد بودّان كبير. سلخناه وأكلناه بعد جوع طويل. قال إنه خان النذر وستعاقبه روح الجبال على ذلك. ولكنه أكّد لي أنه لن يعلّم صيد الودّان لنسله إذا رزق بمولود ذكر. هل فهمت الآن يا معاند؟ قلت لك ألا تلحّ عليه في أمر الودّان لأن ذلك يؤلمه».

«يا رب أصعدت من الهاوية نفسي، أحييتني من بين الهابطين في الجبّ».

العهد القديم/ المزامير

أغنية تدشين البيت

«وجود البلغة مادّة من مواد الصبر. ووجود الصبر مادّة من مواد القوة ووجود القوة مادّة من مواد الولاية».

النّفّري

«وجود البلغة»

الهـاويــة(*)

.. ولمّا كسر الحيوان المسكون رقبة الوالد، تذكّر كلام الـوالدة عن الوعد، ثم عاد فنسيه مرة أخرى. الشيطان قرين الشباب، وسوس له فنسي وسها، ودسّ له في قطيع الأغنام ثلاثة رؤوس من الودّان، وجلس على قمة الجبل يتفرج.

حدث ذلك بعد وفاة العجوز بسنوات، عندما كـان يرعى القـطيع في جنوب وادي «متخندوش» حيث حفرت مياه الأنهار والسيول خنـادق عميقة قبل أن ينحرف الوادي يميناً ويغيب بين الجبال الغربية العالية ذات الصخور العمودية التي تقف كالأشباح تحرس الصحراء الحجرية وتراقب الطلح في الهاوية. استلقى تحت صخـرة في السفح، وراقب الأغنـام العنيدة وهي تتطاول بالسيقان الأمامية للوصول إلى الفروع الخضراء في أشجار الطلح. ضحك وهو يشاهد معزاة نهمة تتحايل على طلحة عالية لم تسمح لها قامتها أن تبلغ أعـرافها المخضـرة. بجوار الشجـرة وقف حجر عمـودي، حـادّ الرأس. تسلقته المعزاة بقفزتين. وفي لحـظة كانت تمـد رقبتها من هـذا

(*) الهاوية: يضع الصوفيون المسلمون الهاوية في الدرجة السفلى بين طبقات الحساب، وهي السابعة حسب ترتيب الإمام الغزالي، فيقول: «... وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة. بعضها فوق بعض. الأعلى الجحيم. ثم سقر. ثم لظى. ثم الحـطمة. ثم السعيـر. ثم الجحيم. ثم الهاوية». وقد وردت الهاوية هنا ليست كأداة للقصاص وإنمـا كرمـز صوفي للتطهير وغسل الكفارة.

الموقع المريح إلى قمة الشجرة المسكينة لتبيد القبعة الخضراء على رأسها. في الطرف الآخر من الوادي، عند الأحراش البرية الباهتة، انشغل تيس عظيم، متوج بقرنين كبيرين مقوسين بمغازلة معزاة حسناء، فضية اللون. وبجوارهما وقف تيس آخر بشع، أشعث الشعر، يرمق المغازلة بحقد. كانت المعزاة تستجيب لمداعبات التيس العظيم، فتلتفت برقبتها، وتتحسس خياشيمه بخياشيمها في قبلات سريعة، ثم تدس رأسها في الأحراش الشاحبة، متظاهرة بالانشغال في التهام النبات. ويبدو أن ممانعاتها تثير التيس العظيم الجميل فيتجرأ. يتقدّم خطوة أخرى. يدس رأسه بجوار رأسها متظاهراً أيضاً بتناول الطعام، ويقترب بخياشيمه ليختطف منها قبلة. ثم يعود فيتفقدها من الخلف متردداً خجولاً. يجول ببصره حوله في المرعى، يبادل التيس البشع بنظرة وعيد، ويمرر خياشيمه على جسد المعزاة اللعوب حتى يدرك مؤخرتها فيشم ويتفقّد رائحتها.

نظرة التيس الآخر القلقة تستمر. فيها قلق، وتأهب، ودهشة. ثم أدرك أسوف بشرر الوحي أن التيس العظيم الجميل العاشق ليس تيس ماعز وإنما هو ودّان حقيقي. رأى تلك الإشارة من عيني التيس الآخر... المنافس... الحقيقي.

ودّان عملاق، رمادي اللون، تتلامع شعرات فضية في شعره الكثيف. تتدلى من ذقنه لحية طويلة. رأسه متوّج بقرنين معقوفين هائلين. واستغرب كيف لم يدرك منذ البداية أن التيس الذي أثار إعجابه وتابع حركاته ومداعباته للمعزاة ليس تيساً وإنما هو الودّان العظيم.

في قلب الوادي، بين القطيع، رأى شاتين أخريين تتسكعان مع الأغنام. لم يحدثه والده ولا أمه أن الودّان يمكن أن يأنس إلى الغنم إلى الحد الذي يجعله يرتع معها في المرعى بهذا الاطمئنان، إلى الحد الذي يجعل ذكور هذا الحيوان الحسّاس، الهيّاب، تتجاسر وتتورط في مغازلات مع المعزات.

قبل مصرعه بأسابيع قال له الوالد وهو يرافقه إلى «أبرهوه» لجلب الحطب على عدد من الجمال: «هل تظن أن الحيوان لا يفهم لمجرد أنه لا يقدر أن يتكلم مثلك؟ إنه أذكى منك ومني!». ذلك جوابه على سخرية أسوف من دفقات الحنان التي يحرص الوالد أن يبديها إزاء جمله الأبلق. يحاوره في الليل والنهار، في الفجر قبل أن يصلّي، وفي الظهر قبل تناول طعام الغذاء، وفي الليل قبل أن يهجع للنوم. يداعب الوبر على جسمه، ويمرر راحة يده على رقبته الطويلة، ويتحسس بحنان شفتيه الكبيرتين المتدليتين، ويمسح عنهما الزبد، ثم يحتضن رأس المهري ويردد: «هل رأيت في الصحراء جملاً أجمل منه؟ هل عرفت أطوع وأصبر وأشجع؟ هل رأيت أذكى وأعقل؟ يا ربي ما أجمله، هذا الأبلق! انظر إليه، إلى عينيه... إلى أسنانه... إلى رقبته الهيفاء... إلى ساقيه... كل شيء فيه متناسق ورشيق. حتى بطنه لا يشبه بطون الجمال. ضامر صغير ممسوح. لا يملك بطناً لأنه نبيل. النبيل من لا يملك بطناً، فهو لن يضطر أن يتنازل عن معشوقته في سبيل بطنه مثل بقية المهاري الجشعة. الأبلق معشوق كل النوق في الصحراء الكبرى. بالأمس تلقيت من راعٍ عابر وصية إعجاب وثناء من نوق «تامنغست» الحسناوات. بعثن إليه زمَاماً جديداً مزركشاً بالألوان ومطرزاً بخيوط الذهب. كل النوق يعرفن قدره، يعشقنه، لأنه أجمل وأنبل جمل في الصحراء الكبرى كلها. ثم يذهب ويأتي له بحفنة من الشعير يحرص أن يأخذها معه خصيصاً في كل رحلاته، ويطعمه من يديه الممدودتين. بل انه يبالغ في تدليله، ويسقيه من حصته من الماء الشحيح. زاد الماء هو زاد الحياة في الصحراء. ولن يجرؤ أي فارس أن يجود به في الصحراء المهددة دائماً بالعطش. بين هذه المداعبات المسلية، يروق للأب أن يلتفت إليه ليسدي له النصيحة: «يجدر بك أن تهتم بمهريك دائماً. إذا لم تحبه لن يحبك. إذا لم تفهمه لن يفهمك ولن ينقذك في اللحظة الحرجة. الحيوان أكثر وفاء من الإنسان». وفي الليل

قصّ عليه كيف استطاع جمل مخلص أن ينجي صاحبه ويخلصه من أعداء أحاطوا به وضيقوا عليه الخناق في دائرة وكاد يسقط في الأسر في إحدى الغزوات. مروءة المهر وشجاعته هما اللتان أنقذتاه. اخترق حصار الأعداء دون أن يعبأ بطعنات الرماح والسكاكين والسيوف. واستمر ينزف حتى بلغ بصاحبه برّ الأمان، فبرك، ومدّ رقبته، ومات.

واختتم قصصه عن الحيوانات ليلتها بتلك المرثية الكئيبة التي لا يملّ تكرارها عن الغزلان كلما ارتفع القمر بضعة أشبار عن الأرض، وغمر بأضوائه الفضية الباهتة العراء السحري الغامض، فيطيب للأب أن يبكي على الغزلان، يهمهم كأنه يحدث نفسه: «ما أجمل تكوينها! ما أرشق قامتها! ما أنعم جسمها! السحر يفيض من عينيها. أجمل مخلوق في الدنيا. روح الصحراء الرملية. فيه امتدادها وهدوؤها وسكينتها وسحر قمرها. فيه المحال. فيه الحرية. ولذلك لم يطمع مخلوق في أن يقبض عليه حيّاً. ما يحرقني أنني لم أقبض على غزال حي حتى اليوم». ثم تتلألأ مقلتاه بالدموع، يحجبها بلثامه قبل أن يضيف بصوت تخنقه العبرة: «هذا يحيرني. لماذا على الإنسان المجرم أن يطارد ملاكاً كهذا ليقتله ويحشو به جوفه؟ إذا لم يقتل الإنسان غزالاً هل يموت من الجوع؟ ولماذا يجوع الإنسان حتى يضطر أن يسفح دم هذا المخلوق الجميل؟ ربما كان هذا هو السبب الذي جعل الله يعاقبنا ويحرمنا من الظفر به حيّاً». وإذا جاء ذكر الودّان. تغيرت ملامحه، وقال بلهجة خفية: «الودان شيء آخر. أنا أخاف الودّان».

ولكن الودّان أيضاً ذكي. ها هو يستأنس، في السنوات الأخيرة، بعد استتباب الهدوء في أودية «مساك صطفت»، وخلوّها من الصيادين وكلاب الرعاة وبنادق المغامرين. لا أحد صرع الودّان في هذه المناطق منذ وفاة الأب. اطمأن الحيوان، ونزل من حصونه في الجبال العليا، وتجاسر أن يشارك الأغنام كلأها الشحيح في المراعي السفلى.

النذر حرّم على الولد أن يرث حرفة الوالد، والوالد لم يمت إلا لأنه خالف النذر. النذور ليست مزحة. والودّان يعرف ذلك. وكيف لا يعرف وهو روح الجبال؟ الأرواح من روح الله وبكل شيء عليمة. تعلم ما يبطنه الإنس في القلب. هذا سبب الجرأة والاطمئنان المدهش. إن الودّان العظيم يكاد يتناطح مع التيس الغيور، الأشعث، القبيح. التيس يحفر الأرض بحافره الأمامي في استفزاز ويتأهب للعراك.

يا ربي. من رأى ودّاناً يتناطح مع تيس؟

وجد نفسه يتناول عصاه وحبله، ويتسلل إلى قلب الوادي. يحتمي بالصخور وأحراش الشجيرات البرية حتى أشرف على الموقع حيث يتسكع الودّان.. يلاحق المعزاة الحسناء متجاهلاً استفزازات التيس الحاقد الغيور، يتحرك بكبرياء وجلال والتبر الفضي المنثور في شعره الرمادي يتألق تحت أشعة الشمس، فيزيده الوميض مهابة وغموضاً.

لم يعرف كيف نهض وكيف زحف إلى موقع الحيوان المسكون. بل لم يدرك هدفه من هذا العمل. قوة مجهولة دفعته إليه. نسي النذر، ونسي مصير الوالد وانقاد إليه مأخوذاً، مسلوب الإرادة. يقول أبوه، وكذلك أمّه، إن روح الودّان تجذب، تضلل، تسلب العقل، وتجرّد من الإرادة، فيجد الصياد نفسه مسلوباً منساقاً، مسكوناً، يتقافز على أربع، ويطارده على الصخور الصماء، الملساء، القاسية.

حقاً أن ما أنساه النذر، وساقه مستسلماً خلف الودّان، في ذلك اليوم، كالمجذوب بالوجد، سرّ كبير.

في هذا الحيوان يسكن سرّ كبير، لا يوجد مثله حتى في الغزال المسحور. الوالد محقّ عندما قال: «... أنا أخاف الودّان». لم يخطىء في إحساسه. نهايته كانت على يديه.

يا ربي! ما الذي دفعه إلى أن يلوح بتلك المشنقة إلى قرون الودّان العظيم إن لم يكن الجنون؟ أية قوة خفية ساقته لأن يشكل حبل الليف في رأس الحيوان الجبّار، العاتي، فيربط مصيره بمصيره إلى الأبد؟ هل هذا أيضاً كان مكتوباً في اللوح منذ قديم الزمان، قبل أن يتكوّن في جوف أمه ويولد في الدنيا القاسية؟

ما هذا الانتشار؟ هل هذا هو الوجد الذي تثيره الأغاني والموسيقى ودقات طبول الصوفية في الواحات التي حدثه عنها الوالد؟

ولكن الصخور العمياء عرفت كيف تجعله يفيق من نشوته ووجده. قفز الحيوان العظيم المجنون في الهواء بمجرد أن تشكلت المشنقة في قرنيه المهيبين، وانطلق نحو السفح المكسو بالأحجار الوحشية. جرجره على الأرض، وعبر به الوادي في خفة لا تتناسب مع حجمه الضخم. صَدَقَ الوالد إذ قال: «إذا انطلق الودّان فسوف يسوقك صوب أقسى الصخور. إلى أصعب مناطق الجبل». ينطلق إلى السفح، نحو ذلك الجزء الوعر الذي تبرز فيه الأحجار الحادّة كما تبرز الأنياب من أفواه الوحوش. في الجبل مأواه.. حصنه، نجاته. استمر يتشبث بالحبل والودّان ينفض رأسه في حركات عصبية محاولاً التخلص من الشرك دون أن يكف عن الجري نحو الصخور. بلغ به السفح المسلّح بالأحجار السوداء. حاول أن يمسك بصخرة ولكنه أفلتها.. ومضة أخرى، واعترضه حجر ناتىء. تعلّق به بيده اليسرى، واستمر يمسك الحبل باليد اليمنى. الحيوان الهائج يشدّ من جهة وهو يتشبث بالحجر من جهة أخرى. أحس بأن يده ستنسلخ وتنفصل عن كتفه، ولكنه ضغط على نفسه، ولم يتخلّ عن الحجر. لم تمض لحظة أخرى حتى انسلّ الحجر من الأرض، فمضى الودّان يجرهما معاً: لم ينتبه إلى أنه يجر بيده اليسرى حجراً طويلاً إلا بعد أن قطع به مسافة أخرى متوغلاً في المملكة التي لا يعرفها أحد مثله ولا يملكها سواه. تخلّى عن

الحجر، وأحس بالحروق لأول مرة. جسده ملتهب بالحروق. الأحجار تسلخ جلده بالجروح.

سائل يغمر وجهه: العرق، وسائل يغمر ركبتيه وساقيه ويديه ومرفقيه: الدم. أما ملابسه فقد بدأت تتمزق منذ أن بدأت المعركة في الوادي، اقتطعت منها الأحجار والأشجار التي مرّا عليها في طريقهما إلى معقله في القمم.

استمرّ يتقافز فوق النتوءات والصخور. استولى عليه الخوف بمجرد أن رأى حجم الصخور التي يسحبه إليها. هل يتخلّى عن الحبل؟ هل يتركه؟ ولكن كيف يتراجع بعد هذا العراك الوحشي؟ كيف يسلّم بعد أن نزف الدم، ومزقت جسده أحجار الطريق؟ كيف يعود إلى البيت ويقابل أمّه مثخناً بالجراح، ملوثاً بالدم، مهزوماً، فارغ اليدين؟ كيف يلوّث الصياد يديه بالدماء ويعود بلا شاة، بلا صيد؟

اعترضه حجر أكبر، فاحتضنه بذراعه اليسرى. الآن سنرى من منّا الأقوى؟ من الأقوى: شاب يصرع جملاً هائجاً أم ودّان يحطم الصخور بقرنيه؟ عن قوة الودّان تحكى الأساطير في الصحراء. استمر يحتضن بذراعه الصخرة السوداء الملساء الملتهبة، واستمر الودّان العنيد يشدّ الحبل في وثبات عنيفة، متتالية، عصبية. يده اليمنى سوف تنفصل عن كتفه. حاول أن يستعين برجليه الداميتين الملتهبتين بالجروح، ولكن العملاق لم يتح له فرصة للمناورة. وثباته العصبية ازدادت جنوناً، وأحس بأطرافه كلها تتمزق وتتقطع مع هذه الوثبات. في لحظة أخرى استعان بصرخة.. صرخة تردد صداها في الجبال كهرج الجن. لم يحتمل أطول من ذلك. الحيوان في عنفوانه. يجب أن يتحايل. الحيلة. الصبر والحيلة. أبوه يقول إن الحياه لا تستقيم إلا بالصبر والحيلة. الحرب أيضاً لا تكسب إلا بالصبر والحيلة. الحياة حرب. وهو الآن يخوض حرباً. إذا لم يتعب الوحش، إذا

لم ينهكه، لن يحقق شيئاً. الودّان في قمة حيويته وعنفوانه. تخلّى عن الصخرة فشعر بخدر وراحة ويأس. لعن نفسه على تخليه عن الصخرة.

استمرت المطاردة. ليست مطاردة. سحل. استمر السحل عبر أنياب السفح الشرس. بدأت أطرافه تفقد الإحساس بالجروح، والدم الساخن الذي سال على أطرافه وجسمه أحس به يبرد ويتجمد على جسده. الألم إذا زاد عن الحدّ فقد الجسم الإحساس به. الأطراف تموت، والألم يلتهم الألم. الألم يخفف من الألم.

شرع يتسلق أوعر الصخور، فأغمض أسوف عينيه لكي لا يرى بشاعة الأحجار وضخامتها. وفي لحظة وقف على قدميه وهو مشدود إلى ضحيته... إلى جلاّده، فتقافز خلفه مستلقياً بجسمه الممزّق إلى الخلف. ركض خلفه خطوات واسعة، يصطدم بالأحجار، ويرتطم بالصخور حتى وجد نفسه فوق قمة الجبل. ركض الودّان على حافة القمة المخيفة مسافة قصيرة. ثم... يا ربي. ماذا يريد أن يفعل؟ أين يجرني؟ إلى الهاوية. قفز في الهوّة المجهولة في أسوأ مكان. سمع كيف ارتطمت قرون هذا الثور المتوحش بصخرة. وبعدها بلحظة واحدة، قصيرة، كومضة البرق، وجد نفسه معلقاً في نتوء صخرة في أعلى الجبل وساقاه تتدليان في الهاوية الأبدية. لا يعرف كيف ولا متى تخلّى عن الحبل المشؤوم... وأي قدر ساقه إلى هذا النتوء فتشبث به فوق فوهة الهاوية التي لا نهاية لها. التقط أنفاسه، ونظر إلى أسفل محاولاً أن يتبين قاع الهاوية، فلم ير سوى الظلمة. ظل قلبه يخفق في دقات متتابعة، وأنفاسه استمرت تتلاحق، وحاول أن يفسّر ما حدث. أحس بعطش شديد. حلقه يابس، وفمه يابس. أطرافه تنزف. الشمس ما زالت قاسية برغم حلول العصر وانحرافها نحو الغروب. الشمس مسلطة على رأسه الحاسر العاري من اللثام. عمامته تلقفتها أحراش الوادي ونزعتها عن رأسه منذ اللحظات الأولى للمشادّة. انتظر حتى انتظمت أنفاسه. التفت يميناً ويساراً متفقداً المكان. بحث عن طريقة

للخلاص. حاول أن يصل برجليه إلى القمة فتهاوت أحجار على رأسه، وهددته السماء بالسقوط في الهاوية إذا عاود المحاولة. نظر إلى أسفل رجليه باحثاً عن صخرة أو تجويف يقفز إليه ويحميه من الهاوية، فرأى أن الصخرة البلهاء مطلة مباشرة على الظلمات، وتبدو كأنها معلقة في السماء. حرّك يديه المرتعشتين المتشبثتين بالنتوء فوق رأسه، واتجه يساراً، متحسساً الصخرة العلوية. وجد أن النتوء يؤدي إلى سفح أملس يستحيل الإمساك به. اتجه يميناً في حركات بطيئة حذرة، فاصطدم بحافة ملساء ترتفع إلى أعلى، يستحيل الإمساك بها أيضاً. اكتشف أنه سجين شبرين من الأرض، كما في القبر. فهل هذا قبره؟ هل هذا ما يسمونه القبر؟ هل هذه هي النهاية؟ خاف وبكى. لم يبك، ولكن سائلاً حاراً كالجمر، انبثق من عينيه، أحرق وجنتيه في تلك اللحظة. هل هو الغيظ، هل هو الخوف؟ هل بسبب الهزيمة؟ أم لأن نهمه وخيانته للنذر قاداه إلى هذا الفخ؟ النذر. النذر. تذكر النذر. والده أيضاً مات لأنه خان النذر، فهل سيموت؟ هل الموت سهل إلى هذا الحد؟ هل هو قريب إلى هذا الحدّ بحيث تكفي ومضة إعياء يرخي فيها أصابع يديه فيهوي في الهاوية؟ هل الحياة قصيرة إلى هذا الحد؟ لماذا لم يخبره لا الأب ولا الأم أن الموت بسيط، والحياة قصيرة، ولحظة حماقة يمكن أن تقودك إلى الهاوية؟ أليست حماقة تلك التي دفعته إلى أن يهجم على الودّان المسكون ويلف الحبل حول قرنيه؟ وإلاّ ما معنى تلك اللحظة؟ هل هذا ما يسمّونه القدر؟ الأب والأم لا يملاّن من تكرار هذه الكلمة، ولم يفهم معناها إلا في هذه اللحظة. القدر. القدر. السرّ المجهول الذي يأتي لك بودّان يستدرجك إلى الهاوية. لم تعد يداه تقويان على حمله. الإعياء يفوق طاقته. الألم بدأ مع السكون. أطرافه كلها تولول وتتألم. عرف ذلك في مصارعاته للجمال. الإعياء لا يأتي إلا فيما بعد. الجرح لا يؤلم إلا عندما يبرد الدم. وهو لا يستطيع أن يستسلم للألم. المعركة لم تنته بعد. السكون لم يبدأ. المعركة بدأت الآن فوق فوهة

الهاوية. في قلب السكون. إذا استسلم للألم ضاع. ولكن كيف الحال مع العطش؟ كيف سيتحمّل العطش وهو معلق بين السماء والأرض؟ حلقه يابس، وشفتاه مشققتان، جافتان من اللعاب. حاول أن يستجلب اللعاب. لم يقدر. الجفاف عميق في حلقه. الجفاف تجاوز حلقه إلى معدته. استنزف كل الرطوبة من جسمه في أثناء المعركة، خرجت مع خيوط العرق. لا بد أن يبل ريقه اليابس. لا بد أن يلتقط قطرة تغسل الشقوق في حلقه. مدّ لسانه الكسول، ولعق الدموع التي سالت فوق شفتيه. طعمها ملح. الملوحة أفضل من أن ينفجر قلبه. ثم أرخىٰ يده اليمنى، وطفق يلعقها بلسانه. لعق الدم الذي استمر ينزف منها. مالح ولزج. أعاد يده اليمنى، وأمسك بالنتوء، ولعق الدم من يده اليسرى. ناوب بيديه طوال الوقت.

يريح اليمنى لحظات، ثم يعيدها إلى النتوء، ويريح اليسرى.

أمام وجهه طافت غيمة عابرة، خيالات العطش والتعب. قريباً سيسقط في الهاوية. سيسقط عاجلاً أو آجلاً، فماذا ينتظر؟ إلى متى سيصمد معلقاً كخفاش الليل في حجر؟ ماذا ينتظر؟ من سيسقيه الماء؟ من سيأتي لإنقاذه من المصيدة؟ أمه عجوز لن تغادر الكهوف، وأبوه مات والدنيا صحراء. من اختار أن يعيش طليقاً في الصحراء فعليه أن يتولّى أمره بنفسه. هذه حكمة قرأها في حياة الوالد، ودفع حياته ثمناً لها. وهو أيضاً سيدفع حياته ثمناً لها. هل هذه هي الحرية؟ هل الابتعاد عن الناس جريمة ثمنها الموت؟ هل العزلة كفر بالله؟ لماذا يعذّب نفسه؟ مصيره تقرر، ولن تنقذه معجزة لأنها لم تنقذ أباه من قبل. لا معجزات في الصحراء. إذا وقعت في الفخ فعليك أن تخرج منه وحدك، وإذا لم تستطع فتقبل مصيرك بشجاعة. هل معنى هذا أن يرخي قبضته عن النتوء لحظة واحدة ويكون كل شيء قد انتهى إلى الأبد؟ يكفي أن يرخي أصابعه أو يكف عن تبديل يديه، يوقفهما عن التناوب على حبل النجاة... على النتوء البارز الصغير. سيهوي وسينفجر

قلبه قبل أن يبلغ القاع. لن يتألم أبداً. لا ألم هناك. الألم هنا، في الصخرة، في التشبث بالنتوء، في الحياة. النتوء هو الحياة. ما أقسى الحياة!

أين الشجاعة؟ أين النبل؟ أين الخوف من ارتكاب العار؟ أين تلك الأشياء التي أنفق والده حياته يحاول أن يزرعها في قلبه؟ قال له إنه سيعتبر نفسه حيّاً ما دامت هذه المبادىء حيّة في قلب الإبن، وسيموت فقط عندما يخون مبدأ من هذه المبادىء. إذن خلود الوالد في موته. ولكنه لن يخون أي مبدأ إذا أراد الحياة. إذا كان التفريط في الحياة سهلاً إلى هذا الحد، فلماذا وهبها لنا الله؟ الحياة. الصحراء الأبدية الحزينة والأغنام المتقافزة السعيدة، والغزلان الشاردة الرشيقة، وهمهمات الأم في الكهف في ليالي الشتاء. هذه هي الحياة.

كيف يفارقها، ويرخي قبضته ليتركها، ويقفز في الهاوية؟

كلمـــة الســـرّ

. . لن يتهاون عن النتوء، ولن يرخي أصابعه. الصبر. أوه، كاد ينسى وصية الوالد: «أوصيك بالصبر. كيف تستقيم الصحراء بدون صبر؟ من لم يوهب هذه النعمة لن يطيب له المقام في الصحراء. عليك بالصبر والحيلة فهما سرّ الصحراء. لا أحد يستطيع أن يتنبأ من أين يمكن أن تأتي النجاة، من السماء أم من الأرض. المهم أن تصبر وتنتظر. الصبر هو كلمة السرّ».

حلّ المساء، وسادت الظلمة.

حاول مراراً أن يبتلع ريقه. لا وجود للريق. خارت قواه تماماً. حركة اليدين أصبحت بطيئة. . كسلى. جمع كل قوته في يديه. جمع قوته الخفية التي زودته بها الصحراء طوال هذه السنين وزرعتها في قلبه. قوة الرجل ليست في جسده. إنها في قلبه.

مع حلول الليل، بدأ يقاوم بقلبه.

القلب زوده بالصحو. فتح عينيه المسبلتين، وامتص المزيد من الدم، من جروح ذراعيه، وعندما لم يجد ما يمتص، نهش يديه بأسنانه، ليمتص منهما الدم والرطوبة. كانت الظلمات والصمت أقسى من الهاوية. أنصت للسكون محاولاً أن يتبين محاورات الجن. أين أخيار الجن الذين يروق لهم أن يتحادثوا بأصوات عالية في الأيام العادية؟ لماذا لا يأتون لإنقاذه؟ لماذا لا يأتون حتى من باب الأنس وطرد الوحشة في ظلمات الهاوية؟ أين

أنتم يا معشر الجن؟ ولكن الجن لم يستجيبوا. . لم يهمهموا، ولم يأتوا في تلك الليلة.

المعزات هربت وستعود إلى مأواها في الكهوف إذا لم تفتك بها الذئاب. مسكينة العجوز. ماذا ستفعل إذا رأت القطيع يعود وحده بدونه؟ ستموت من الخوف. ثم. . يا ربي. إنها ستموت أيضاً إذا مات. أدهشه أنه لم يفكر في ذلك من قبل. عقله مشوش تماماً. قوة القلب الآن أعطته الصفاء ليرى أنه في موقف أبشع وأقسى من الموت. أمّه ستبقى وحيدة، وستفترسها الذئاب في يوم ما. لن تنجو بدونه. ستدفع هي الأخرى ثمن العزلة. ثمن الحرية. ثمن الابتعاد عن أذى الخلق. هناك الأذى والذلّ، وهنا الحرية والموت. هذا هو السبب الذي جعلها تخاصم الأب دائماً وتعيب عليه عدم معاشرة الناس. كانت تدرك أن الرحلة لن تنتهي على خير. ولا تملك إلا أن تحتج بالدموع والبكاء. وهي الآن وحيدة، تبكي في الكهف، وتنتظر أن تموت. لا. لا. لن يموت. لن يسمح بأن يموت. يجب أن يفعل شيئاً للتخلص من الشرك. حرّك قدميه، وحاول بكل قوة قلبه أن يبلغ بهما النتوء. كان يرفعهما فوق رأسه، فتدحرجت الحصى والطين، وهدّد النتوء بالانسلاخ من الصخرة. أنزل رجليه في يأس. أرخى يده اليمنى فتدلت في الهواء. كانت متصلبة كعود طلح.

التقط نفساً عميقاً. الجن، يا معشر الجن الطيب. أين أنتم؟ الصبر. من لم يوهب هذه النعمة، لا مكان له في الصحراء. ولكن من أين ستأتي النجاة حتى لو صبر في هذه المشنقة ألف عام؟ صحراء الله واسعة، والمكان ليس ممرّاً للقوافل، ولا مرتعاً للرعاة. وحتى لو حدثت المعجزة وقرر الله أن يرسل من ينقذه، فأين يجده في هذا المخبأ المطلّ على الهاوية؟ لا أمل في النجاة. لا أمل. سمع صوت أبيه يقول له: عليك أن تصبر حتى لو فقدت الأمل. هذا قانون الصحراء. و. . . دون إرادة وجد

نفسه يمزق السكون العميق بصرخة رهيبة. . صرخة اليأس: آ. . آ. . آ. . آ. . .

فردت عليه قمم الجبال الغارقة في الصمت والظلمات بصرخة أحسن منها:

- آ. . آ. . آ. . آ. . آ. . .

تردد الصدى طويلاً. . طويلاً.

لم يستجب الجن. أما الإنس فلم يصرخ طمعاً في مساعدتهم. الإنس لا وجود لهم. لا وجود لهم منذ زمن بعيد. منذ أن ترك لهم الوالد الدنيا ويمّم صوب الخلاء الأبدي لا يريد منهم شيئاً، إلاّ أن يتقي شرّهم وينجو من الأذى. فهل هذا جزاء من يفقد اللغة مع البشر؟

استرخى، بلغ الضعف مداه، فاستمدّ القوة من القلب، ولعق بلسانه الجروح على ذراعيه، لعق خيوط الدم المتيبسة. الصبر. الصبر. خيّل إليه أنه سيغمى عليه. . أحس بالدوار وعبرت رأسه غمامة. هزّ رأسه كي يطردها واستعان عليها بالصراخ:

- آ. . آ. . آ. . آ. . .

عادت الجبال ترد الصرخة بأقوى منها:

- آ. . آ. . آ. . .

ثم عمّ الصمت مرة أخرى. لا همس. لا حركة. لا همهمة. لا جنّ. لا وجود للجنّ في أعالي الجبال. أين الجنّ؟

في قلبه غالب النعاس وأشباح التعب. خيالات تهيم أمام عينيه وتستدرجه للتسليم بعروة الوعي. إذا فقد الوعي سقط في الهوّة. إذا تخلّت عنه قوة القلب تهاوى في الهاوية. ينبغي ألا يكف عن التفكير في مصير الوالدة المسكينة بعد هلاكه. ماذا ستفعل العجوز بنفسها في هذه الفيافي؟

ستموت عطشاً أو جوعاً أو تفترسها الذئاب. لا ينبغي أن يموت. ليس من حقّه أن يموت ويتركها تواجه هذا المصير القاسي. هو آثم. خان العهد واستحق العقاب، ولكن ما ذنبها هي حتى تموت بموته؟ أين العدالة؟ أين الله؟ عندما بلغ السابعة وقرر الأب أن يعلّمه سورة الفاتحة سأله:

ـ هل تعرف أين الله؟

أشار بإصبعه إلى أعلى، وقال:

ـ في السماء.

ضحك الوالد حتى استلقى على قفاه، وقال مشيراً إلى صدره:

ـ الله هنا وليس في السماء.

ثم تمتم كأنه يخاطب نفسه:

ـ في القلب، معنا، فينا.

ثم رفع إليه نظرة غريبة كأنه يعود من رحلة في الملكوت البعيد، من غياب طويل، وهمس:

ـ يكفي أن تجيب إذا سئلت أنه في القلب. إياك أن تخطىء. في القلب.

لم يستطع يومها أن يفهم هذه اللغة. كيف يكون الله الكبير، العظيم، القادر على كل شيء في القلب الصغير، المسجون في قفص هذا الصدر؟ وها هو يحس مشنوقاً في رأس الصخرة، أن المرحوم على حق. فأين يستمد قوته على الصمود إن لم يكن القلب؟ لولا تلك القوة الخفيّة في القلب، لولا الله في القلب، لسقط من زمان في هاوية الظلمات التي تشدّه من رجليه إلى أسفل.

في النصف الثاني من الليل خيّل إليه أنه أغفى. أغفى وهو معلق.

واستغرب كيف لم يسقط. ربما كان وهماً. ربما لم يغفُ. عادت الآلام أقسى مما كانت. لم يعد يستطيع الاستمرار، لم يعد يحتمل. لا أمل. لا أمل. أين قوة القلب؟ أين الله؟ سوف يسقط بعد قليل. فقد القدرة حتى على تحريك يديه. لم يعد يستطيع أن يبدلهما تناوباً على التشبث بالنتوء. انتهى كل شيء. لا أمل له في النجاة. لا أمل للوالدة في النجاة. كتب عليها الشقاء. وسوف تتعذب طويلاً قبل أن تموت. أسوأ ما في الأمر أنها ستتعذب قبل أن تموت. صرخ صرخة ميتة. حشرجة مخنوق يحتضر. أفزعه الصوت ويئس أكثر. بدأ يرخي قبضته اليمنى على النتوء. قريباً سينتهي كل شيء... سينتهي الألم والعطش. سيختفي الشعور بالفجيعة على مصير والدته الوحيدة. سيختفي كل شيء. ستغيب الصحراء الأبدية. لن يرى الغزلان مرة أخرى. ولن يشاهد السراب يتراقص في الأفق. ما أقسى أن تغيب الصحراء! كيف سيحتمل فراق الصحراء؟ أسوأ شيء بعد عذاب الوالدة هو ألا يشاهد الصحراء الخالدة حتى تختفي في رحاب الله. و... سمع خطوات فوق رأسه. هل هو وهم من أوهام الموت؟ المحتضر يرى ما لا يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعه الناس. خطوات بطيئة.. حذرة.. مترددة. صوت أقدام تدحرج أحجار الطريق. هل هذا معقول؟ هل يمكن أن تتحقق المعجزة؟ مستحيل. خيالات محتضر. في مواجهته بالضبط، انشق الأفق عن خيط رقيق من البهرة. بهرة الفجر. استمر الصمت لحظات. أنصت مرة أخرى علّه يسمع الخطوات الموهومة. حتى لو كانت وهماً فهي تزرع الأمل في القلب. فتح عينيه، ولم يصدق. شيء خشن لامس أصابع يديه المتخشبة في قبضتها على نتوء الحياة. شيء خشن. هل هو حبل؟ ضغط على نفسه، وفتح أصابعه الميتة. قبض على «الشيء». حبل. حبل الليف الخشن. لم يصدق. أمسك به بكلتا يديه. تعلّق به. لن يتركه إلى الأبد. سيتشبث به حتى لو أحرقوا يديه بالنار. سحبه الحبل، فأطل برأسه فوق القمة. لم يتبين شيئاً في العتمة. جسم يتحرك

أمامه ويجره بقوة. هل هم الجنّ؟ استمر الجسم يتحرك. يجره من فم الهاوية. لامس صدره النتوء، فأحس أن كل الجبال التي كانت ترقد على صدره قد انزاحت مرة واحدة وهوت في ظلمات الهاوية الوحشية، البشعة. نجا. نجا. الجنّي الذي أنقذ حياته ما زال يخطو في العراء المغطى بالأحجار ببطء وصمت وهدوء. حاول أن يتبينه في عتمة الفجر. أغمض عينيه وفتحهما عدة مرات قبل أن يركز في الشبح الصبور. رأى ملامح. يا ربي. إنه... الودّان.

نفس الودّان.

ضحيته. جلاّده. من منهما الضحية؟ ومن منهما الجلاّد؟ من منهما الإنسان؟ ومن منهما الحيوان؟

ثم توقف الودّان العظيم عن المشي. رآه يرفع رأسه الضخم المتوج بالقرنين الخرافيين، ويواجه ذلك الخيط الغامض الذي يبشر بالفجر. البصيص الباهت الذي يحلّ فيه دائماً سرّ الحياة. و... فجأة، في عتمة هذا البصيص الرباني، رأى أباه في عيني الودّان الصبور، العظيم، رأى عيني الوالد الحزينتين، الطيبتين اللتين لم تفهما لماذا يؤذي الإنسان أخاه الإنسان، ففرّ إلى الصحراء واختار أن يموت وحيداً في الجبال على أن يعود إليهم.

العينان اللتان اختارتا الحرية القاسية دون أن تعرفا لماذا.

في مكانه المكسو بالأحجار الشرهة، صرخ بصوت مخنوق كأنه يناجي ربه:

ـ أنت أبي. لقد عرفتك. انتظر. أريد أن أخبرك...

أغمي عليه.

العظاية

أفاق مع الأصيل. كوته الشمس، فصحا من الغيبوبة. شمس الصحراء توقظ حتى الأموات. وبرغم حدّة شعاعاتها الصباحية إلا أنها تغرق في الغمام والعتمة. غلالة تحجب عنه الأشياء مثل زوبعة من الغبار. هل هي الريح؟ تذكر العطش. العطش هو الذي يستر الأشياء. حاول أن يتحرك فعاودته الآلام. بذل مجهوداً خارقاً كي يحرك أطرافه ويزحف. زحف بمحاذاة القمة مراعياً تجنب الهاوية. يحس أنه لن يخطىء موقعها حتى لو أصيب بالعمى. لن ينسى موقعها في حياته. سوف ينذره قلبه حتى لو مشى معصوب العينين. لولا القلب لما نجا منها.

وجد موقعاً مناسباً. بدأ ينحدر مستعيناً بالصخور. زلّت رجله فتدحرج مسافة طويلة طويلة. خيّل إليه أنها لن تنتهي.. سلخت الأحجار أطرافه، ولكن الأطراف ميتة، لم تعد تؤلمه. استسلم للسفح حتى وجد نفسه يمسك بأحراش الوادي. حاول أن يفتح عينيه ويتفقد أمتعته، ولكن الحجاب الشفاف ازداد كثافة... غطى الدنيا بالظلمات.

غاب عن الوعي مرة أخرى.

لا يعرف متى أيقظته الشمس مرة أخرى.

مدّ يده، واقتطف أوراقاً يابسة من الشجرة البرية. زحف عبر امتداد

الوادي. تذكر الصبر. لولا الصبر لهوى في الهاوية. قام بمحاولة بطولية ثانية. استجمع القوة الباقية، الأخيرة، من القلب، وزحف حثيثاً عبر امتداد الوادي.

كان زحفاً يائساً.. حركة أخيرة. الحركة التي تقرر الموت من الحياة، مدفوعاً بإصرار الإنسان المحتضر على أن يلتقط نفساً عميقاً أخيراً من الحياة حتى لو كان رأسه مفصولاً عن جسده. المعزة تسحب الهواء وتتنفس طويلاً بعد ذبحها. رأسها مفصول عن جسدها. أمّا الودّان المذبوح فينهض واقفاً بدون رأس، ويجري مسافة طويلة في العراء قبل أن يستسلم نهائياً ويسلم أمره لله. والعظاية. الحال مع العظاية أسوأ. تذبحها في الصباح وعندما تلقيها في النار لتشويها في الليل، لا بد أن تقفز من الجحيم وتجري في العراء.

ثمة حياة أخرى بين الموت والحياة. ثمة حالة ثالثة ليست عدماً وليست وجوداً، هو الآن في الحالة الثالثة. يزحف عبر الوادي كالأفعى، محجوب العينين. لا يرى شيئاً... ولا يعي شيئاً، باحثاً عن قطرة الماء التي تركها بالأمس في قاع الوادي قبل بدء المعركة.

بيده المرتجفة، تحسس الخيش المعصوب على المطرة و... شرب. و... نام.

أفاق في الليل. إنها الليلة الثانية لغيابه عن العجوز.

يتسكّع في الأدغال، بين شقوق الجبال
مثل ودّان انهكته الأحزان
يريد أن يفلت مما كُتب
في اللّوح المحفوظ
ولكن تظل نبوءات القدر
تحوم فوق رأسه أبد الدهر

سوفوكليس
«أوديب ملكاً»

التحــول

بعدها عاف اللحم.. كل اللحوم. لاحظ هذا التغيّر أول مرة عند موت جدي، فوجد أمّه تقوم بطبخه في القدر عند مدخل الكهف. عاد من الرعي، فغزت الرائحة أنفه من مسافة بعيدة. شعر بالدوار والغثيان، وأفرغ أمعاءه الخاوية في العراء عدة مرات قبل أن يبلغ البيت.

أصبحت اللحوم تثير تقزّزه. واندهش كيف كان يستطيع أن يستطعم أكل اللحم. كيف يستطيع المخلوق أن يأكل لحم مخلوق؟ ما الفرق بين لحم الحيوان ولحم الإنسان؟ من يقدر أن يأكل لحم الودّان يقدر أن يأكل لحم الإنسان أيضاً. لقد حلّ الأب في الودّان، والودّان حلّ فيه. هو والمرحوم والودّان العظيم الآن شيء واحد. لن يفصل بينهم شيء.

الأم انزعجت، وقالت إن هذا من تدبير الجن. نصحت بالاحتكام إلى تمائم السحرة. وبّخته غاضبة:

ـ كنْ رجلاً في النهاية وتحدّث مع تجار القوافل كي يأتوا لك بحجاب من «كانو» أو «تمبكتو».

لم يتنازل ويتحدث مع التجار في سبيل الحجاب لأنه لا يخاف الجن ولا يريد أن يحصّن نفسه من الودّان. من يحصن نفسه من نفسه؟

لم يخبرها بالسرّ.

بالتحوّل.

رحلـة الجسـد

عن هذا التحوّل، نسج الأهالي في الواحات الأساطير.

طردته الصحراء بالجفاف فاضطر أن ينزل إلى الواحات ليجرّب حظه مع الناس لأول مرة في حياته، فتزامن حجّه إلى «غات» مع حملة الاعتقالات التي قام بها الكابتن بورديللو لشباب الواحات ليجرّهم إلى مرزق ويزج بهم في المعسكر الذي هيأه لتدريب أبناء الأهالي وتجهيز الحملة لغزو الحبشة.

قبل الجفاف أغرقت السماء أودية الصحراء بالسيول. تلك السيول التي فاجأتهم، وجرفت العجوز من الكهف ليجد بقاياها في «أبرهوه» بعد ثلاثة أيام. مزقت الأحجار أعضاءها في تلك الرحلة الطويلة. الرأس مهشم، عار من الشعر. الأشجار نتفت الشعيرات الفضية القصيرة على رأسها الصغير، ولم يبق على الجمجمة سوى شعيرات متناثرة، متباعدة، تعلوها طبقة من الطين. العين اليمنى سقطت. التهمتها الأحجار في الرحلة الوحشية، وبقي مكانها شاغراً، فاغراً فاهاً. المقلة الأخرى تلمع وتحدّق في السماء. وجد مع الرأس جزءاً من الرقبة تعلوه طبقة من الطين. الطين تيبس على الدم. أما الأطراف الأخرى: الأيدي والأرجل وبقية الجسد فعثر عليها متناثرة على طول الوادي، خلال مسيرة الثلاثة أيام، ممزقة، مجرّحة، كأنها قطعت بطعنات سكين. اليد اليمنى ما زالت تسمك بأشواك الطلح قبل أن تنسلخ عن بقية الجسد، فلمع العظم في عدة أجزاء من الذراع. الأحجار الوحشية

نهشت اللحم في الأجزاء الطرية من الذراع. حاول أن ينتزع الشوك من القبضة الجنونية، فلم يقدر. تساقط اللحم المتحلل، ولكن الأصابع العظمية ظلت قابضة على أشواك الشجرة بعناد. قبضت على الشجرة في أثناء دحرجة السيل لجسدها فتشبثت بها. ولكن قوة السيل المجنونة انتصرت على الرغبة المجنونة في التنفس والحياة. انفصل الجسد عن الذراع التي بقيت ممسكة بشوك النجاة. شوك الحياة. إنها تلك الحالة.. الحالة الثالثة بين الموت والحياة، الوجود والعدم، السماء والأرض التي رآها في الحيوانات المذبوحة، وعاشها في ذلك اليوم وهو يزحف في الوادي باحثاً عن قطرة الماء بين الموت والحياة مسافة قد يعود منها المخلوق إلى الحياة، وقد يعبرها إلى الموت. يمضي إلى العدم والظلمات.

في الوادي الواسع الطويل. لم يعثر على بقية الأطراف.

كان إذا وجد طرفاً دسَّه في المخلاة، وخرج إلى المرتفع، يحفر له قبراً ويدفنه حتى قامت للشهيدة عبر مرتفعات الوادي الطويل خمسة قبور على مسافات متباعدة، تقف أحجارها كإشارات تدل على الطريق، وتدين قسوة المجرم المجهول.

النقيضـــان

وقد داهمهم السيل مستعملاً سلاحه الأبدي نفسه: الغدر!

لم يلحظ أي إشارة تشير إليه. السماء صحو منذ الصباح وعارية من الغمام، فشجعه ذلك للخروج إلى المراعي بالأغنام مبكراً. في الليل أيضاً لم يشاهد برقاً، ولم يسمع قصفاً بعيداً للرعد. ولكن تادرارت وكل سلسلة جبال أكاكوس كانت تشهد في تلك الليلة أمطاراً لم تشهد أسخى وأغزر منها منذ سنوات طويلة. وكالعادة لم تتدفق الأودية بالسيول إلا بعد مضي يومين. السيول فاجأت الأم في الأصيل في أثناء غيابه في المراعي.

الإنسان في الصحراء لا بد أن يموت بأحد النقيضين: السيل أو العطش.

بعد وفاتها، قضى بضعة أسابيع في المرتفعات مع ما تبقى من الماعز ريثما توقف تدفق السيول وبدأت الأودية العطشى تمتص الماء.

آلاف السنين من العطش ساعدت الأرض على القضاء على النهر، وبدأت تجف وتتشقق سريعاً طلباً للمزيد.

في ذلك العام اكتظت الأودية والسهول وأطراف الجبال بالغابات والنباتات والأعشاب. رأى أشجاراً لم يرها من قبل، وذاق أعشاباً لم يذقها من قبل. واستغرب أين تخفي الصحراء بذور هذه النباتات. ما أن تهطل

الأمطار وتعمّ السيول حتى تخضر الأرض العطشى القاسية الكئيبة بألف نوع من النبات. تنمو النباتات بسرعة، وتخضر الأشجار الشاحبة اليابسة في أيام قليلة. كأن البذور المبثوثة في العدم، في ثنايا الرمل، بين الصخور الصماء، تنتظر هذه اللحظة، تتلهف على لقاء السماء بالأرض، حتى إذا تمّ اللقاء، تململت النطفة في العدم، وتنفست الصعداء، وشقت الأرض أو الحجر، وأطلت برأسها بحثاً عن الشمس والحياة.

يروق له أن يتوقف وينحني ليتأمل الوريقات الصغيرة التي تفلق طبقة الطين لترفع رأسها من العدم مدفوعة بقوة الحياة. تهتك حجاب الظلام لتنعم بالفضاء والعراء. الماء يهب الحياة للصحراء كما وهب الموت لأمه العجوز.

وكما هو الحال دائماً فإن السيول الجارفة لا بد أن يليها الجفاف. استمر الجفاف طويلاً. دام أكثر من أربع سنوات. في السنتين الأولى والثانية عاش على نباتات السيول السخية. ولكن موجات القبلي التي هبت على الصحراء في السنة الثالثة أتلفت ما تبقى من الأشجار وامتصت آخر أمل لنباتات الأودية في الحياة.

في السنة الثالثة بدأ يهلك القطيع. ما ربّاه في عام الخير من الجديان والمعيز قضى عليه القبلي. كل الأودية صفراء، ذابلة، كئيبة. لم تجد الأغنام ما تأكله، فبحثت عن الروث بين الصخور، وأكلت فضلاتها سنوات السيل.

كان أسوف يجلس على الصخرة فوق البئر، يصب لها الماء لتشرب، ويراقب أجسامها النحيلة الغثّة الذابلة الكسولة. أين تلك الشراسة التي تتميز بها الأغنام؟ أين تلك الشقاوة والحيوية؟ أين نشاط الجديان العادي؟ أين التيوس القوية التي لا تكف عن التناطح والتقاتل في سبيل المعشوقة؟ أين النظرة الذكية المتألقة من العين اللماعة السوداء؟

كل ذلك اختفى لأن الأغنام لم تعد تجد حتى قطع الروث التي تفوح منها رائحة أعشاب ذلك العام العجيب. حتى تجار القوافل كفّوا عن قبول المقايضة. ذهب مرة وربط في العراء فوق المرتفع ثلاثة رؤوس، وذهب، ووقف بعيداً في انتظار مرور القافلة المتجهة إلى «كانو». وصل التجار، وتفحصوا البضاعة طويلاً، تفقدوا المعزات، وتحدثوا فيما بينهم ثم مضوا دون أن يتركوا له شيئاً. تركوا البضاعة. أغنامه لم تعد تصلح للمقايضة. ماذا سيفعل؟ كيف سيعيش بدون تمر وبدون شعير؟

ولكن تلك المصيبة كانت أهون من اللاحقة. بدأ القطيع يهلك. في صباح أحد الأيام نهض في الفجر ووجد أن معزاة قد نفقت في الليل. ثم تبعها معزاتان وتيس وجدي. و. . . هكذا توالت الجثث.

ازداد قلقه، وبدأ يفكر جدّياً في النزول إلى الواحات.

لم يكن سهلاً عليه أن يتخذ هذا القرار لو لم ير الموت يزحف نحوه كل يوم.

كان الوادي مليئاً بجثث الأغنام. وكان يتفرج دون أن يتحرك حتى لذبحها، فهو لا يذبح ولا يأكل اللحم منذ حادثة الهاوية. ينهض في الليل على عراك الذئاب حول الجيف. وفي الصباح يهيل التراب على الجثث المتعفنة المبقورة البطون التي مزقت الذئاب أمعاءها وأكلت الديدان عيونها السوداء الجميلة الحزينة.

ولكنه لم يغادر الكهوف وينزل جبال أكاكوس البعيدة إلا بعد أن نفقت آخر معزاة.

فانقطع آخر خيط يربطه بـ «مساك صطفت».

راقــد الريــح

اعتقله رجال الكابتن بورديللو في اليوم الأول لدخوله الواحة. وجدوه يجلس تحت جدار في «سوق الحدادة»، يلتقط أنفاسه من الرحلة الطويلة، فوضعوا القيد في يديه، وساقوه إلى الحامية الإيطالية على المرتفع. هناك وجد مجموعة من الشباب معتقلين داخل الحامية. ضحكوا لقدومه وتبادلوا عبارات ساخرة، ثم بدأوا يحاصرونه بالأسئلة. وعندما علموا أنه نزل «غات» أول مرة من «مساك صطفت» البعيدة المنكوبة بالجدب الذي لحقها، ضحك أحدهم بعصبية وقال: «هذا ما يقال له: راقد الريح يلقي العظم في الكرشة». تضاحكت الجماعة وفي الغد حشروهم كالغنم في طابور طويل، واتجهوا بهم صوب العوينات في الطريق إلى مرزق. هناك ينتظرهم الكابتن المجنون ليدربهم ويحقق بهم أحلامه البطولية في غزو الحبشة من الشرق بواسطة الهجانة.

هنا، في الطريق، قبل أن يبلغوا العوينات، حدث ما تناقله الأهالي ونسجوا حوله الأساطير. روى لهم الشباب، فقالوا إنهم رأوا المعجزة لأول مرة في حياتهم. شاهدوا إنساناً يفلت من الأسر ويتحوّل إلى ودّان، يعدو نحو الجبل، يتقافز فوق الصخور في سرعة الريح غير عابىء بمطر الرصاص الذي ينهال عليه من كل جانب. فهل رأيتم إنساناً يتحوّل إلى ودّان؟ هل رأيتم إنساناً ينجو من رصاص الطليان وهو يجري على قدمين حتى يختفي في ظلمات الجبال؟

الصوفيون الحكماء في الواحات هزوا رؤوسهم من الوجد، وألقوا بالبخور في النار، وأجمعوا: ذلك وليٌّ من أولياء الله.

وفي الليل، ذهبوا إلى الزاوية، ونظموا حفلة ذكر، جذبوا فيها حتى الفجر، إكراماً للولي، وفرحاً بحلول الذات الإلهية في المخلوق الأرضي البائس.

ذلك كان أول لقاء وآخر لقاء بين أسوف وأهل الواحات. توجه إلى «مساك ملّت» حيث ترعى جماله. هناك فتح له الله باباً لا يفتحه إلا لأوليائه: كانت سحابة عابرة قد مرّت على الأودية السفلية فسالت سهولها. مكث في الصحراء الرملية مع جماله حتى رأف قلب السماء على الصحراء الجبلية بعد عدة شهور فعاد إلى كهوف متخندوش.

هل كان دراويش الصوفية يقرأون الغيب في رؤياهم عن الولاية والحلول؟

دعـــــاء

أصرّ قابيل أن يرافقهما لاستطلاع الودّان في الجبال المجاورة.

أجلسه قابيل بينهما، فتولّى مسعود قيادة السيارة. كان يمسح العرق عن جبينه، ويلعن الصحراء بألفاظ بذيئة سمعها أسوف لأول مرة. أول مرة يسمع رجلاً يتلفظ بالعبارات البشعة، ولم يفهم أي ذنب ارتكبته الصحراء حتى تستحق هذا السباب.

انطلقت السيارة تلتهم السهل الملتحم بالأفق.

هذه ثاني مرة يركب فيها أسوف سيارة. المرة الأولى كانت برفقة الخبير الطلياني الأشيب الذي أجلسه بجواره في سيارة مكشوفة وطلب منه أن يدلّه على كهوف وادي «آينسيس». فتّش جبال الوادي حجراً حجراً ووضع علامات بالأحجار بجوار بعض الكهوف ورشّها بسائل لزج أبيض ليميزها عن بقية الأحجار، ثم عاد به إلى متخندوش. أعطاه المعلبات ورغيف خبز أبيض ولفافة بسكويت، وضحك له، وركب سيارته العارية، وانطلق شرقاً إلى «ابرهوه». كان نصرانياً بشوشاً وطيّباً. في طريق عودتهما إلى متخندوش اعترض طريقهما زوج ودّان. ذكر وأنثى. انطلقا وركضا ببطء نحو الجبل. كانت أنثى الودّان حاملاً فاضطر الذكر إلى مسايرتها في ذلك الجري المتثاقل البطيء. كان النصراني يضع في المقعد الخلفي بندقية محشوة بالخرطوش. وعندما امتدت يده إلى الخلف، ظلت عيناه تتابعان الزوجين

وهما يتنقلان بين الصخور القاسية، واعتقد أسوف أنه سيتناول البندقية ويطلق عليهما النار. تدفق العرق على جبينه، وتملكته الرعدة المبهمة. ولكن النصراني تناول منظاراً ثبته على عينيه، وراقبهما من خلال فتحتيه حتى غابا في ظلال أعالي الجبل.

تذكر كيف استقبله جنود الكابتن بورديللو في غات منذ ثلاثين عاماً، وقال لنفسه إن هذا النصراني لا يشبه أولئك النصارى.

هل قال ذلك لأن النصراني لم يقتل الودّان أم لأنه أعطاه الهدايا والمعلبات؟

لا. لا. قال ذلك لأن إحساسه أوحى له أن هذا الشيخ الأشيب يحب الصحراء. لقد رأى ذلك في عينيه، وفي معاملته للأحجار المرسومة. رأى كيف ترتجف أصابعه عندما تلامس جدران الكهف الموسوم بخطوط الأقدمين. في تلك اللحظة، يفيض من عينيه بريق غامض. يخرج منديله من جيبه، ويمسح التراب والطين عن الوجوه المحفورة في الصخور الصمّاء حتى تتضح الصورة تماماً. يتراجع خطوات إلى الوراء، ويتفرج على الرسم. قد تنفرج عن شفتيه ابتسامة، وقد تغزو مقلتيه مسحة كآبة. وفي بعض الأحيان، يقف طويلاً أمام الوشم الحجري، عاقداً يديه حول صدره، يميل برأسه يميناً ويساراً، وفي عينيه خشوع المسلم عندما يصلّي، يتلفظ برطانة غير مفهومة، يخاطب رفاقاً لا وجود لهم، يضرب كفاً بكف، يقفز في الهواء كالدرويش، ويوجه إليه كلاماً غير مفهوم، ينسى نفسه تماماً. وعندما يعود من غيبته إلى الدنيا يبتسم له معتذراً، ويربت على كتفيه كأنه يريد أن يطمئنه أنه لم يجن بعد.

انتهى السهل، وبدأت «مساك صطفت» تعلن عن نفسها. انتشرت المرتفعات المغطاة بصخور سوداء ضخمة محروقة بنار الشمس الأبدية. انتهى صفاء الصحراء الرملية الممتدة، المنبسطة، الرفيقة بالعباد، وبدأت

عراقيل الصحراء الجبلية الغاضبة. هذه الملامح الصارمة تستقبل بها هذه الصحراء الرّحل القادمين من الصحراء المعادية: الرملية. ويبدو أنها ورثت هذا الحقد من ذلك الزمان السحيق الذي كانت فيه المعارك بين الصحراوين القاسيتين لا تتوقف، ولم تفلح حتى الآلهة في السماوات العليا أن تصلح أو تخفف من جذوة هذا العداء. ها هي تنظر إلى الزوار القادمين من غريمتها بالكراهية. تقافزت السيارة، وطارت في الهواء مرات متتالية، فاضطر مسعود أن يهدىء السرعة إلى أقصى حد. الصخور الكبيرة ألزمته أن يناور ويداور متتبعاً الشعب الصغيرة، متحاشياً الوقوع في المفاجآت والتجاويف.

أسوف حذرهما من مفاجآت الصحراء الجبلية ولؤمها. تبدو الأرض منبسطة وممتدة حتى تعترضك هاوية بغتة. الأودية تشق الأرض كالشقوق، ولكن عمقها هائل. وكلما حذّر أسوف من هوّة أو وادٍ مخفي، هتف قابيل: «ألم أقل إنك جنّي؟ من يمكنه أن يرى هذه الفخاخ غير الجنّ؟ لولاك لكنّا نرقد في قاع أحد الأودية من زمان».

تزحزحت الشمس عن العرش، وبدت عليها مسحة الهزيمة وهي تنكسر نحو الغروب. في لحظة الإنكسار تبدو الشمس دائماً مهمومة حزينة.

ربما لأنها تودع الصحراء إلى مثواها اليومي الخالد.

في الصباح لا تبدو على وجهها مثل هذه السمات. في الصباح تبدو قاسية، تتوعد، وتهدد الكائنات بالتنكيل والعذاب. انحدرت السيارة عبر السفح إلى الوادي العميق.

طوال الرحلة كان أسوف يصلّي، ويقرأ الفاتحة، ويدعو الله ألا يأتي بودّان في طريقهم. وما أن بلغوا الوادي حتى أمر قابيل بإيقاف السيارة. ترجّل وتفقّد آثار الودّان. قال:

ـ أليست هذه آثار ودّان؟

نزل أسوف خلفه، وقال متلعثماً:

ـ لا أظن. هذه آثار الماعز.

رمقه قابيل بشك، وسأل:

ـ آثار ماعز؟ هل هذه آثار ماعز؟

لم يرفع نظره عن أسوف. في نظره غضب ووعيد خفي. ثم مشى خطوات يقتفي آثار القطيع مردداً: «آثار ماعز؟ هل هذه آثار ماعز؟».

في تلك اللحظة حدث ما خشي منه أسوف طوال النهار. من خلف صخرة، أمامه بالضبط، أطل ودّان برأسه، ووقف يتفرج على حركتهم في الوادي. أشاح بوجهه بسرعة إلى الناحية الأخرى. حمد الله أن قابيل ومسعود لم يلحظا الحيوان العظيم. وكي يداري ارتباكه ويشغل اهتمامهما، رفع رأسه إلى أعلى وكبّر للصلاة.. صلاة العصر. أحس بأن الحيوان لا يزال يقف خلف ظهره، ويراقبهم من التجويف الصخري. لقد اشتمّ المسكين رائحته فاطمأن إلى الضيوف. أصبح الودّان ينقاد إليه ويرتع بجواره في قطعان كبيرة منذ أن توقف عن أكل اللحم... منذ حادثة الهاوية. منذ أن رأى أباه في عيني الودّان العظيم الذي أنقذه من الموت ثم تسلل إليه قبل أن يغيب عن الوعي. تجيئه القطعان في المرعى، تختلط بالماعز، وتقبل نحوه ذكورها، تشمشم ثيابه بخياشيمها، وتتأمله بعيون وديعة غامضة، تنطق بألف لغة، وتتحدث بألف لسان دون أن يصدر عنها صوت، ثم تمضي لترتع في الأحراش. في البداية كان يخرس، وتنشل أطرافه من الدهشة. ومع الوقت تعوّد، وأصبح يداعبها، ويحادثها، ويقص عليها الحكايات، ويشكو لها الهموم: قسوة الصحراء وخشيته من معشر الإنس، فتعزيه بعيونها التي تنطق بألف لغة، وتتكلم بألف لسان دون أن تنبس.

الودّان عرفه الآن، ويريد أن يأتي ويحييه. وإذا أتى فسيقع في أيدي الوحوش. سيقع في أيدي الناس الذين لا يأكلون إلا لحوم الغزلان والودّان. الويل لك! ابتعد! إقفزْ في جوف الجبل يا روح الجبل. ارجع إلى مأواك السرّي المنيع. قل لحصنك أن يبتلعك حتى تعبر البلوى.

أنهى صلاته. كرر مناجاته للجبل كي ينجي روحه. التفت خلفه: الودّان اختفى.

في تلك اللحظة، انحنى قابيل فوق فضلات الودّان. بسطها في يده، وقال غاضباً: «هل هذه أيضاً فضلات ماعز»؟

اللـقيــط

قصته مع اللحم بدأت منذ الرضاعة.

مات الأب مطعوناً بالسكين عندما حبلت به أمّه. وماتت الأم متأثرة بلدغة أفعى بعد ولادته بأسبوعٍ. ورثت تربيته خالته، فسقته دم الغزال في إحدى الرحلات بالحمادة عملاً بنصيحة أحد الفقهاء. قال إنها التعويذة الوحيدة التي تستطيع أن تغسله من النحس وتحمي بقية أهله وأقاربه من اللعنة التي تلاحقه منذ أن كان نطفة في بطن أمه. ولكن الخالة وزوجها ماتا عطشاً في تلك الرحلة، والتقطت قافلة عابرة الطفل الرضيع وهو يحشو رأسه في جوف الغزال ويلعق الدماء والروث في البطن المبقور. ويقال إن الدم هو الذي أنقذه من المصير الشقي الـذي آلت إليه خـالته وزوجهـا. ولم يكن ربّ القافلة ليلتقط الطفل لو علم بمـاضيه. ولم يخـطر له أن يكـون «الملاك الصغير» سبباً في نكبته. بارت تجارته، واستولى قطاع الطرق في الصحراء على قطعانه، ونهبوا قافلة له متوجهة إلى «تمبكتو».

وداهمه اللصوص في عزّ الظهر، وهو يقضي القيلولـة، في الواحـات الوسطى الآمنة، وكادوا يتكمنون منه لولا أن هبّ لنجدته أحد مسـاعديـه المخلصين، وأفزعهم برصاص أطلقه من فوهة البندقية العثمانية القـديمة التي لم يسبق لها أن أطلقت رصاصة، ولم يظن أبداً أنه سيأتي يوم يحتاج فيه إلى نجدتها بين الأهالي المسالمين. نجا بأعجوبة من كيد الأعـداء،

ولكنه فقد ثروته المتنقلة والمنقولة عبر الصحراء الكبرى.

لم يعرف سرّ البلاء حتى وجد ابنه بالتبنّي يأكل اللحم النيء من الطبق وأسنانه تقطر بالدماء. في إحدى الرحلات التالية إلى «كانو»، عرض أمره على السحرة، فطلب الساحر أن يأتيه بشعرة من رأسه أو قطعة من ثوبه، فنزع سوار الجلد من معصمه، وقدمه للساحر، وقال لـه إن السوار كـان يطوّق عنق الطفل. هزّ رأسه، وقرأ تعاويذه، وغابت عيناه في الملكوت، وألقى بالسوار الجلدي في النار وبقي يغمغم بلغة الهوسا طويلاً، ثم تمتم محمرّ العينين:

ـ من فطم على دم الغزال في الصغر لن يستقيم حتى يشبع من لحم آدم في الكبر.

دهش آدم وصاح بالساحر الزنجي:

ـ يشبع من لحمي أنا؟

قال الساحر دون أن يبدو عليه الضيق:

ـ قلت من لحم آدم ولم أقل من لحمك أنت.

خرج من كوخ الساحر غاضباً. وقصد بعد يومين أشهر العرافين. سرد عليه قصة اللقيط من البداية حتى حادثة اللحم النيء، فطلب العراف مهلة. جاءه في الموعد المحدد فأذهله جوابه. قال بصوت واضح:

ـ يا قابيل يا ابن آدم، لن تشبع من لحم، ولن تروى من دم، حتى تأكل من لحم آدم، وتشرب من دم آدم.

وكرر العبارة الغامضة ثلاث مرات.

بعد محاورة طويلة، اقتنع العراف أن يحصّنه بحجاب.

ولكن حتى تمائم السحرة في «كانو» لا تحمي من المكتـوب. فضاع

الحجاب في إحدى الرحلات، وعاد الولـد ينهش اللحم النيء. أمّا آدم فتوغّل في رحلة تجارية إلى الأدغال.

فمزقته قبائل «يم يم» بالحراب، وقطعته، وأكلت لحمه نيئاً.

قبائل «يم يم» مشهورة بحبها للحم الأبيض.

أكلة لحوم البشر

قابيل أيضاً لقبه أقرانه بـ «ابن يم يم» بعد أن اشتهر بحبه للحم النيء. ويحدث عندما يتشاجر مع أولاد الجيران أن يشتموه:

ـ يا منحوس يا آكل لحم أمه وأبيه بالتبني. ستأكل كل اللحم الذي في الدنيا يا ابن يم يم الشيطان!.

يهجم عليهم، فيفرون. يكشف عن أسنانه كي يخيفهم، ويطقطق بها مقلّداً زنوج «يم يم»، فيبكي الأولاد ويهربون إلى بيوتهم ووجوههم صفراء من الرعب. يفعل ذلك من باب المزاح، ولكن لم يقدّر له أن يرى ملامحه في تلك اللحظة ليشاهد مدى شبهه بزنوج «يم يم» الذين يتلذذون بـأكل لحم البشر.

ولم يتخلّ عن هذه العادة الإرهابية حتى لمّا كبر وأصبح أشهر الصيادين في الحمادة الحمراء. ما أن يطول حنينه إلى لحم الغزلان حتى يستيقظ من نومه فزعاً، ويوقظ أقرانه لمرافقته إلى الصيد. ويروق لمسعود الذي رافقه وعاشره أكثر من الجميع، أن يحكي تلك الحادثة الطريفة عندما قرر قابيل أن يترك أكل اللحم. مضى شهر على قراره فتبدّلت ملامحه. شحب لونه، وذبل جسمه وبرزت وجنتاه، وعانى من الصداع والنوبات العصبيـة التي تشبه الصرع. تنتابه رعدة عنيفة، ويعلو الزبد شفتيه، ويسقط على الأرض وهو ينتفض في هزات عنيفة كما تنتفض الدجاجة الذبيحة. يهرع مسعود

ويرشه بالماء، ويأتي له بكأس الشاي الأخضر ظنّاً منه أن الشاي قادر أن يشفي أي إدمان حتى لو كان إدمان اللحوم طالما يعالج المدمنين على شربه. وربما فعل ذلك لأن لا وجود لإدمان في الصحراء غير إدمان الشاي الأخضر. ولكن مسعوداً أدرك عقم عمله عندما استيقظ في إحدى الليالي على صوت صديقه وهو يبكي بصوت مسموع ويردد غائباً:

ـ لا أستطيع. لا أستطيع. لا أستطيع. لم أعد أحتمل.

رافقه إلى الخلاء، واصطاد له غزالة أكلها في الليلة نفسها.

في تلك السنوات، كانت الحمادة تفيض بالحياة، وتعج بقطعان الغزلان. الأمطار السخية لا تنقطع طويلاً. إذا شحّت السماء وبخلت بالماء الوفير هذا العام فإن شوق السماء إلى الأرض في السنة التالية ينقذ البذور من التلف والانقراض، ويحمي الأشجار البرية من الجفاف، فيأتي الخلاص. تخضر السهول في الربيع، فيكثر الترفاس والطيور والأرانب والغزلان، حتى إذا أشرفت على السهول العليا على حين غفلة فوجئت بأجمل المخلوقات ترتع بسلام. حتى إذا شعرت بحركة الإنس تأهبت للفرار. وعندما تتحرك في فرارها الجماعي، يتحرك السهل، تتحرك الصحراء. كأن الصحراء نفسها هي التي تتحرك وتفر هرباً من بطش الإنس. سبب آخر ساعد في تكاثر أجمل المخلوقات في ذلك الزمان.

لم تدخل سيارات اللاندروفر ولا بنادق الخرطوش حرم الصحراء بعد. السيارات الوحشية جاءت مع دخول الشركات الباحثة عن النفط والثروات الجوفية. مضت سنوات قليلة ثم تمّ اختراع ذلك السلاح الشيطاني خصيصاً لانتهاك الحمادة وإبادة القطعان الآمنة.

دخول هذا السلاح أجمل هدية تلقاها قابيل آدم من ضابط المعسكر الأميركي في غريان.

تعامل مع هذا الضابط منذ أن كان يصطاد بالبندقية العثمانية القديمة التي ورثها عن أبيه بالتبني، ومنذ أن ارتاد الخلاء برفقة صديق الطفولة مسعود على ظهور الجمال. يخرجان من البلدة الهاجعة على حدود الجبل الغربي مع بداية الربيع ويقضيان أسابيع كاملة ولا يعودان إلا عندما ينفد زادهما من الماء والغذاء. يعودان بشرائح الغزال مجففة، ويزوران المعسكر ليشتري منهما الضابط الأمريكي القطع الباقية التي فاضت عن حاجة قابيل أو يقايضها بأكياس الدقيق والشاي والسكر والمعلبات.

وبعد مضي ثلاث سنوات على علاقتهما، درّبه على القيادة، وأهدى له سيارة لاندروفر قديمة كي يستطيع أن يلاحق المخلوق الجميل. ولم يلحظ جماله الخارق إلا بعد أن اقتنى هذه الآلة الشيطانية العجيبة، فتمكن أن يراه عن قرب وهو حيّ. في الماضي لم يكن الغزال ليسمح له بالاقتراب مسافة تقل عن المئتي متر. الغزال أكثر الحيوانات حساسية ويقظة في الصحراء. يشم رائحة الإنس من أبعد مسافة، ولا يقع تحت طائلة البصر إلا مباغتة في عتمة الفجر أو في الأيام التي يموت فيها الهواء وتسكن الريح تماماً.

العجلات الجنية أتاحت له فرصة أن يملأ عينيه من أجمل المخلوقات. عندما يتولى مسعود القيادة ويخترق القطيع بالسيارة، يحرصان أن يختارا شاة معينة كضحية. هو الذي يختار في العادة. ويتولى السائق مهمة المطاردة في العراء الممتد نحو الأفق كأنه لن ينتهي أبداً. الغزال يطير في الهواء والآلة الجهنمية تلاحقه. تدركه. تجاوره. هذا هو الغزال الذي حلمت، كما حلم كل أطفال الصحراء، أن تمسكه بين يديك، وتربت على رقبته الرشيقة، تلامس شعره الذهبي، تتأمل عينيه الذكيتين الشقيتين، وتقبله في جبينه، وتضمه إلى صدرك. فيه سحر المرأة، وبراءة الطفل. تصميم الرجل ونبل الفرسان. خجل العذراء وشقاء الصحراء، رشاقة الطير وسرّ الخلاء.

هذا هو. منهك. محطم. العرق يغمر جسمه، والزبد يعلو شفتيه. يجنْ. يطير. لم يعد يقوى على الاستمرار، ولكنه يصبر ويصبر، ويصبر على البلاء. أخلاقه في العدْو لا تقارن بأي حيوان هارب. لا يلجأ إلى المناطق الجبلية الوعرة كما يفعل الودّان. لا يداور، ولا يناور في طريق السباق. وإنما يمضي في خط مستقيم، عبر العراء السمح، معتقداً أن الإخلال بقواعد السباق يخالف النبل ويجلب العار. يختار البطولة على الخبث والمداورة. يرفض الحيلة والخديعة ويفضل الالتزام بأسلوب الفرسان.

مسكين الغزال البري. لا يدري أن مجرد استخدام هذه الآلة الشيطانية خيانة للطبيعة وإخلال بقواعد الصراع النبيل واحتكام إلى أبشع أنواع الخديعة.

ولكن قابيل لا يفكر كثيراً في الإخلال بقوانين الطبيعة. ما يهمه هو أن يصطاد أكبر عدد ممكن من الغزلان ليطفىء لهيب أسنانه، ويسكت جوفه، ويبيع الباقي لضابط المعسكر الأمريكي.

الهجــــرة

ثم...

ثم أهدى له «جون باركر» آلة شيطانية أخرى.

مع دخول بنادق الخرطوش إلى الصحراء، تضاءلت فرصة الغزلان في النجاة، وأشرفت القطعان على الانقراض والفناء. يذكر أنهار الدم التي سفحها بعد حصوله على هذا السلاح. ينحدر إلى السهل المزحوم بالغزلان، ويبدأ في الحصد. طلقة واحدة تسقط مجموعة من الرؤوس. يعيد الضغط على الزناد، فتتساقط الشياه كما يتساقط البلح إثر احتكاك العراجين عندما تهب العاصفة. العاصفة تجهض جنينها بضربة واحدة. في إحدى الغزوات ثقب الخرطوش غزالة حبلى، فاحتمت برتمة صغيرة، وصدرت عنها شكوى اليمة، وأسقطت الجنين، وانهمكت تلعق الدم والمخاط عن جسد وليدها الصغير. كانت الغزالة تنزف والوليد الجريح ينزف، ويحاول أن يرفع رأسه المثقوب بالخرطوش. وعندما همد تماماً، وأيقنت الغزالة بأنه مات، رفعت رأسها نحو السماء الصافية، وصاحت بصوت أليم.. صوت فجيعة. وعندما التفتت رأى في عينيها دموعاً كبيرة. خطت نحو السيارة خطوتين ثم سقطت وماتت ومقلتاها الغامضتان تنطقان بالشقاء وتحدقان في الفراغ.

في السابق كان يصطاد في الغزوة الواحدة غزالة واحدة، اثنتين إذا ابتسم

له الحظ، أما الآن فانعكس الوضع. أصبح يصرع كل القطيع في غزوة واحدة، ولا تنجو سوى غزالة واحدة أو غزالتين إذا حصل الحيوان المسكين على ابتسامة من الحظ!.

ومع ازدياد الذبائح، ازداد استهلاكه للّحم. الآن يفطر بشاة ويتغذى بشاة ويتعشى بشاة وربما أكثر من شاة إذا استضاف أحد الضيوف أو عابري السبيل من الرعاة أو الرحل أو تجار القوافل. ولم يتصوّر في يوم من الأيام أن يتناقص الغزال إلى هذا الحد. لم يتصوّر أن هذا الحيوان الذي تعج به الصحراء يمكن أن ينقرض. عندها فقط تذكر الأجنّة التي يستخرجها من جوف الأنثى الذبيحة و... تذكر ـ بشكل خاص ـ الغزالة الصريعة التي قتل جنينها في بطنها فاشتكته إلى السماء. ولكنه ما لبث أن نسي وواصل تمشيطه للحمادة بحثاً عن الرؤوس الشاردة التي تراجعت إلى الجنوب واحتمت بمرتفعات جبل الحساونة(*).

الجوّالون وتجار القوافل قالوا إنهم رأوا الغزلان تعبر الحدود إلى تاسيلي في مسيرات طويلة قاسية تقطع المناطق المفروشة بذلك السجاد الفظيع من الأحجار السوداء. قالوا أيضاً إن آثار الدماء في كل مكان لأن الأحجار الشرسة السوداء نهشت نصيبها من الغنيمة وسلخت حوافر القطعان المهاجرة بوحشية.

جبل الحساونة أصبح معقلاً انتقالياً للغزلان اللاجئة إلى الصحراء الجزائرية. الغزلان الجريحة اتخذت من السلسلة المنيعة ملجأ للاستشفاء، حتى إذا استردت عافيتها انطلقت في الطريق الطويل وواصلت المسيرة نحو الجنوب البعيد. وقد رأى الصيادون القدامى في هذا التحوّل الغامض الذي لم تعهده الصحراء طوال تاريخها في أخلاق الغزلان إشارة سماوية. ولم

(*) جبل الحساونة: سلسلة جبلية تمتد جنوب الحمادة الحمراء وتفصلها عن الصحراء الرملية في فزان.

يفت الحكماء منهم أن يعوذوا بالله من شيطان الإنس عقب كل صلاة ويستجيروا به من شرّ ابن آدم وشراهة ابن آدم التي كانت سبباً في اختراع السلاح الشيطاني، فهددت أجمل المخلوقات بالإبادة، وأجبرت الرؤوس الباقية على الهجرة إلى أقصى الدنيا ليس بحثاً عن الكلأ وإنما طلبا للبقاء وإنقاذاً للنسل من الفناء.

يلتقي الصيادون في البراري العارية، ويتسامرون حول الشاي الصيني الأخضر، ويعزون بعضهم بعضاً: «أصبح الغزال مثل الودّان يتطاول في رؤوس الجبال. هذا آخر الزمان». لا يستطيع أحد تأويل الظواهر مثل أهل الصحراء، لا يجاريهم أحد في قراءة أسرار الغيب، ولا يجتمعون إلا لكي يبحثوا عن تفسير لإشارات آخر الزمان.

«خلّص يا ربّ لأنه قد انقرض التقيّ، لأنه قد انقطع الأمناء من بني البشر».

العهد القديم/ المزامير

لن يشبع ابن آدم إلاّ التراب

العراك نشب فجأة.

فبعد عودتهم من رحلة الاستطلاع الخائبة علّق أسوف على شراهة قابيل بعبارة عابرة. قال:

ـ سمعت أبي يقول إن ابن آدم لن يشبع إلا بالتراب.

ولم تكن العبارة لتستفز قابيل لو لم يعودا فاشلين من الغزوة. اندفع نحو البدوي وصرخ بغضب:

ـ ماذا تريد أن تقول يا راعي الغنم؟.

تراجع أسوف خطوات إلى الوراء، وردد ببلاهة:

ـ قلت إن أبي يقول إن ابن آدم لن يشبع إلا بالتراب.

ـ أتسخر منّي يا عجوز النحس؟.

في تلك اللحظة، ضحك مسعود بقهقهات عالية، فأسكته رفيقه بنظرة حاقدة، ثم التفت إلى أسوف. تقدم نحوه، فهرب البدوي باتجاه الكهف حيث اختبأ قطيع المعيز. مشى بخطوات واسعة، ولكن قابيل لاحقه واعترض طريقه:

ـ نهارك أحرف يا عجوز النحس. أتظن أني مغفل؟ تتغابى وتدّعي أنك

مرابط في حين تتعمد أن تخبىء عنا مواقع الودّان. هل تظن أني لم أكشف حيلك؟.

بدأ أسوف يرتجف، وغزا ظهره عرق بارد. هدد قابيل بقبضة يده، ولوّح بها في وجهه حتى لامس عمامته الشاحبة:

ـ إذا لم تدلنا على الودّان نهارك أحرف. سأريك النجوم في الظهر. أنا لا أمزح.

تقدّم منهما مسعود، فأزاحه قابيل بيده دون أن يلتفت إليه. تراجع أسوف خطوات أخرى وهو يرفرف بيديه كأنه يريد أن يطير. كان حائراً.

إزداد جحوظ عيني قابيل. تفصّد الزبد من فمه. تصاعد جنونه. صاح:

ـ هات الحبل يا مسعود. يومان وأنت تضحك علينا كالصغار. الآن جاء دورنا كي نضحك عليك يا ولد الكلب.

انشلّ الراعي، ولم يعد يحرّك حتى يديه الطويلتين. ظلّ جامداً في حين أتى مسعود بالحبل. حبل طويل من القنب. استمر قابيل يقرأ صحيفة الاتهام:

ـ ألا تستحي؟ عجوز مثلك ويكذب؟ أخبرونا في الواحات أنك الوحيد الذي يخبر معاقله في هذه الأراضي.

فتح أسوف فمه، ولما لم يجد ما يقوله، فقد كرر العبارة القاسية ببلاهة:

ـ لن يشبع ابن آدم إلا التراب. أبي قال ذلك.

هجم عليه قابيل أولاً. ثم لحقه مسعود ولدهشتهما لم يقاوم البدوي. قال قابيل:

ـ لن تفلت منّي كما أفلتَّ من جنود الكابتن بورديللو. لقد أخبرني الأهالي بالقصة. ولكني لا أصدق أنك تحولت إلى ودّان. أتفهم؟ أنا لا

أصدق أنك وليّ؟.

انتهى من تقييد يديه ورجليه ثم وضع يديه في خصره، فبدا مسدسه الأسود، وصرخ:

ـ إذا كنت وليّاً حقاً كما يقولون ففك القيد واهرب إلى الجبل كما يفعل الودّان. ها.. ها.. ها.. لو تحوّلت إلى ودّان فسأكون أول من يأكلك. ها.. ها...

ولكن أسوف كرر العبارة كأنه يردد تعويذة يمكن أن تحميه من بطش الجلّاد:

ـ لن يشبع ابن آدم إلا التراب.

فقد قابيل صوابه. لدغه الاستفزاز، فهجم على ضحيته المقيدة من اليدين والرجلين، وجرجرها عبر الوادي الرملي. اتجه صوب الصخرة العالية التي ينتصب فيها الودّان الأسطوري العظيم بجوار الكاهن الأكبر.

أنهكه الأعياء، فوقف، ومسح العرق عن جبينه بذارعه، وصرخ في رفيقه:

ـ هل جئت إلى هنا كي تتفرج عليّ؟ لماذا لا تعينني؟.

أقبل مسعود، وساعده في جرّ أسوف إلى الصخرة. أمسك به من رجله اليمنى، فحدّق إليه أسوف بعينين تنطقان بالفزع والرجاء. ولكن الرجل لم يلتفت إلى الاستغاثة وربما لم يلحظها.

دار قابيل حول الصخرة العالية، وصعدها من الخلف، من الناحية السهلة التي تتواصل في سلسلة الكهوف الممتدة نحو الجنوب الغربي في عمق الوادي. أطلّ إلى الناحية العمودية، وصرخ في مسعود:

ـ هات الحبل. ألق بطرف الحبل.

لوّح مسعود بحبل القنب في الهواء، فحاول قابيل أن يلتقطه. اختلّ توازنه، وكاد يهوي إلى أسفل. تشبث بنتوء في اللحظة الأخيرة. توقف عن الحركة لحظات. اشتد الجنون في عينيه. ردد كأنه يخاطب نفسه:

ـ عجوز النحس. أرني كرامتك واهرب إلى الجبل في جلد ودّان. أين كراماتك يا ولي الله؟! يا عبد العبيد؟!.

شدّ الحبل بقوة إلى أعلى، فاحتكّ جسد أسوف باللوحة الصخرية. نهشت ظهره، فتفوه بآهة مكتومة. علّق المشنقة في النتوء العلوي. ساعده مسعود، فدفع بجسد البدوي من رجليه المقيدتين إلى أعلى. تأوه أسوف مرة أخرى. راقب قابيل الجسد المعلق، فلم يرق له الوضع. نزل من الناحية الأخرى، وركض نحو السيارة. عاد بحبل أخر، واعتلى الصخرة من نفس الجانب الأفقي المؤدي إلى السلسلة. ربط الحبل الجديد في اليد اليمنى، وعلقه في نتوء يبعد مسافة قصيرة يمين الصخرة. أخرج من جيبه سكيناً، وقطع الحبل. نزل من الصخرة، وفك الوثاق الأول بالسكين. أوثق الرجل اليمنى بالحبل الجديد يميناً، في موازاة اليد. وعاد إلى الرجل اليسرى، وأحكم تقييدها بحبل القنب، وأبعدها عن الأخرى بأن شدّها إلى نتوء أبعد. أصبح أسوف الآن مصلوباً منفرج الساقين والذراعين. جسده يغطي الودّان الأسطوري المهيب ويد الكاهن تلامس رأسه الحاسر من العمامة، تربت على رأسه.

ظهرت لحيته المكسوّة بالبياض ورأسه المهدد بالصلع. في عينيه دهشة. في قناع الكاهن غموض: قناع الكاهن ازداد غموضاً.

نطق قابيل مهدداً:

ـ تكلّم. أين يسكن الودّان يا عبد العبيد؟.

فأجابه أسوف بتعويذته في إصرار طفولي:

ـ لن يشبع ابن آدم إلا التراب.

العهـــد

هاجرت آخر قافلة، وبقيت غزالة وحيدة تتبعها وليدتها تحوم حول جبل الحساونة. وكانت الغزالة الباقية تعتمد على حصن ورثته عن أمّها يحميها من شرّ البشر.

ترتع في السهول المجاورة للجبال الزرقاء في ظلمات الفجر مع وليدتها، وتلجأ إلى الصخور بمجرد أن يتنفس الصبح وينشق الأفق بالضوء. تحتمي بظلال الأحجار المنيعة طوال النهار، تتنقل بين الألواح الصماء المحروقة بأشعة الشمس المتغطرسة، وتتقافز على رؤوس الصخور كما يفعل الودّان الرهيب لتسلّي صغيرتها وتباريها في الرشاقة واللعب والسباق حتى التحق آخر غزال بالمسيرات الليلية الطويلة.

رأت الغزالة الحكيمة الوحشة في عيني صغيرتها، فحدثتها عن السبب الذي جعلها تجرؤ على البقاء وتتخلّف عن طوابير المهاجرين. وقبل أن تدخل في تفاصيل الحصن الحصين، رأت أن تلقّنها الأمثولة، وتقص عليها حكاية عن الوطن. قالت لها في إحدى الأمسيات إن الخالق لمّا خلق الروح عيّن له حدوداً وحبسه في ثلاثة سجون: الزمان والمكان والجسد. وقد حقّت اللعنة وهلك كل من حاول أن يخرج من هذه الحدود لأن الخالق قدسها وجعلها قدراً في رقبة المخلوق، ومخالفتها تمرّد على إرادته. وحدث أن اغتر الغزال بقرنيه الكبيرين، وخرج عن القطيع في السهل.

تطاول في الجبال، واعتلى أعلى قمة... القمة المهيبة الزرقاء المعممة بالغمام التي يخشى حتى الودّان أن يقترب منها. فماذا كان جزاء خروجه؟ عاقبه الخالق بطائر متوحش لا تعلو عليه قمة، فبقر بطنه بضربة من مخلبه، وصرعه، وتدحرج عبر السفح وأعاده إلى السهل جثة مبقورة. فمن أراد أن يخرج من المكان أراد أن يخرج من بدنه، ومن أراد أن يخرج من البدن أراد أن يخرج من الزمان، ومن أراد أن يخرج من الزمان ادّعى الخلود، ومن ادعى الخلود كفر بقدره وتطاول على المعجزة ونافسه في الألوهية، ومن نافسه في الألوهية ردّه إلى الفناء. فلماذا نهرب من قدرنا ونذهب إلى تاسيلي؟ كيف نترك سهول الحمادة بمفاجآتها وزهورها وأعشابها وترفاسها وهوائها ونهاجر إلى ما وراء الرملة حيث تزحف الزواحف وتتسكع الوحوش؟.

هنا تجاسرت وليدتها الصغيرة على الاعتراض وقالت إن الوحوش التي شهدتها الحمادة في السنوات الأخيرة تفوق وحوش الغابة قساوة ووحشية، فوافقتها الأم بهزة من رأسها، ثم أمهلتها بإيماءة قبل أن تحكي قصة الحصن المنيع الذي ورثته عن الأم. قالت إنها تعويذة لا مثيل لها في الصحراء كلها ولم يسبق لغزالة أن حصلت على نظير لها. ولولا هذا الحجاب لما تشجعت على البقاء في أحضان الجبل برغم يقينها أن اللعنة سوف تلاحق كل المهاجرين لأنهم خالفوا أحد الأركان الثلاثة التي يقوم عليها قانون المخلوقات. لا حياة لمهاجر في أرض الغربة. اللعنة السماوية ستدركه أينما حلّ.

الصبر على البلاء هو الحجاب الوحيد الذي يحمي من الأشرار والوحوش.

«ففي ربيع الأعوام البعيدة الماضية، حطّ الرحالة الجوال رحاله في السهل المفروش بأعشاب الربيع، وزحف على ركبتيه بين الأشجار

القصيرة. ترك عائلته فوق المرتفع، وسمعنا طفلاً يصرخ في أحضان امرأة تترنّح وتعاند الوهن والسقوط. قالت أمي الحكيمة إنه العطش. عائلة راحلة اختلت بها الشمس المتغطرسة في الصحراء الواسعة وبلتها بالعطش. رفع الرضيع صوته بالشكوى والبكاء، فهدهدته الأم وعزّته بهمهمات غائبة. استمر الرجل يزحف على ركبتيه نحونا، فالتصقت بأمي، ورجوتها أن ننطلق. لا أخفي أني كنت خائفة جداً. إذ كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها ابن آدم على هذه المسافة القريبة وفي هذا الوضع الشقيّ: الزبد يعلو شفتيه ووجهه معفّر بالغبار. ملامحه ذابلة وشفتاه مشققتان. يصيبه الإعياء في مسيرته البائسة فليتقط أنفاسه ويحاول أن يفتح عينيه الكابيتين ويحدق إلينا. مقلتاه مخيفتان وتبدوان كأنهما تنظران في الفراغ. كان المسكين أعزل. لو كان يملك سلاحاً لما اضطر أن يحتكم إلى هذه الحيلة التي لم تنطل علينا منذ أن أشرف على السهل. تأمله القطيع بفضول. كل أفراد القطيع الكبير اشتركوا في الفرجة، وحزنوا له جميعاً. بدأت المشاورات الجانبية، ثم تقدمت أكبر غزالة في القطيع، وخاطبتنا بالقول: كافأ الخالق المخلوقات فأوجدها في الحياة، ثم رأى أن يمتحن صبرها فأوجدها في الصحراء، وجعل سرّه في الماء المعدوم، وجعل سرّاً آخر في القربان القاسي. من ضحّى بنفسه في سبيل إنقاذ حياة أخرى وقف على السر وكسب الخلود. ابن آدم يموت عطشاً ولن ينقذه إلا الدم.

هنا اعترضت غزالة قاسية: ولكن ابن آدم شرير وقاتل. هل نسيت يا أمنا الكبيرة كيف سفح دم عشرات الرؤوس من عشيرتنا في تلك المذبحة الفظيعة؟ كيف نضحّي بأنفسنا في سبيل السفّاح الرجيم؟.

ابتسمت الأم الكبيرة العجفاء، وقالت بصبر وحزن: التضحية لا تعرف المساومات، ولا تلتفت إلى الذات التي يذبح على شرفها القربان لأن القرابين للخالق الأعظم. ثم ألا ترون يا معشر الغزلان الطيبة ذلك الملاك

الرضيع الذي يرقد بين يدي المرأة وهو لم يرتكب إثماً ولم يشترك في مذبحة؟.

صاح غزال لئيم: لا يخدعنكم مظهره الوديع. سيكبر وسوف يذبح العشرات من عشيرتنا.

نهرته الأم الكبيرة، وأعلنت أنها هي التي سوف تقدّم نفسها قرباناً لبني آدم.

تعالت صيحات الاحتجاج واشتد الضجيج. التفت نحو الأدمي المسكين، فرأيته قد أنهكه التعب، فدسّ رأسه في الرمل غارساً يديه في التراب.

هنا رأيت أمي تقفز إلى جوار العجوز الحكيمة، وتصيح في الجمع:

ـ لن نسمح أن تقدّم الأم الكبيرة نفسها قرباناً فنفقد الرأس المدبّر الذي هدانا ويهدينا الصراط المستقيم. ثم انها نحيلة، عجفاء، ليس فيها قطرة دم واحدة. انظروا إليها يا معشر الغزلان الطيبة! هل في هذا البدن دم؟ هل في هذا الجسم قطرة دم تنقذ عائلة؟ أنا أرى أن توافق أمنا المبجلة وتدعني أحلّ محلها.

تعالت صيحات الاستحسان، فقالت الأم الكبيرة وهي تلتفت إلى أمي:

ـ هناك سرّ آخر في التضحية. القربان سيفتح عهداً بين نسلك وبين ابن آدم. سيحرّم عليه دم ابنتك وأبناء ابناء ابنتك إلى أبد الآبدين. هذا هو العهد، حصن القربان وميثاق الدم، واللعنة سوف تلاحق من تسوّل له نفسه أن يخون رباط الدم. فلا يوجد في الدنيا كلها أقوى من رباط الدم وليس هناك جريمة أبشع من خيانة هذا الرباط.

تقدمت مني أمي، وقبلتني، وتمسحت برقبتي؛ وهمست في أذني: «اني أفعل ذلك من أجلك. لن يمسك الإنس بعد اليوم». ثم ذهبت

وسلمت نفسها للآدمي المحطم الذي يغمر وجهه في التراب تحت شجرة الرتم. لم أفهم ما حدث. عقلي الصغير لم يسمح لي أن استوعب قساوة ما حدث. ولم أحس بالخطر إلا عندما رأيت السكين تلمع في يد الإنسان تحت شعاعات الشمس. آه، لو تدرين يا صغيرتي الألم الذي مزّق قلبي في تلك اللحظة. أحسست أن سهماً مسموماً اخترق قلبي. صرخت. هجمت على الأم الكبيرة ونطحتها بقرنيّ الناشئين، ووصفتها بـ «الجنيّة العجوز»، وقفزت وراء أميّ التي تكأكأت عليها كل العائلة في تلك اللحظة. أقبلت المرأة ودست الطفل العطشان في جوف أمّي المسكينة. كانت ذبيحة.

أبعدني الإنس بضربة طائشة، ولا أدري الآن لماذا لم يغرس في رقبتي السكين أيضاً؟ عدت إلى القطيع، وصعدت الربوة المقابلة، وشكوت كل المخلوقات إلى السماء. شكوت الإنس والغزلان والأم الكبيرة، وطلبت منها أن تلعنهم جميعاً مقابل ما سببوه لي من ألم. ثمّ بكيت، وهمت في الخلاء وحيدة حتى اليوم. وكلما تذكرت أمّي الذبيحة أحسست بالسهم المسموم يخترق قلبي مسكينة. فعلت ذلك من أجلي ومن أجلك كي ينعم نسلنا بالأمان عبر كل الأجيال. دمها آخى بين ملّتنا وملّة آدم. نحن الآن وابن آدم أخوة بالدم. هذا الحصن اشتريناه بثمن قاس».

أنهت الغزالة الحكيمة قصتها، فوقفت على قوائمها، ورفعت رأسها نحو قمة الجبل كأنها تقرأ تعويذة موجهة إلى السماء.

فوق السهول الشرقية ما زالت تخيّم الظلمات، ولكن أنفاس الصباح بدأت تشق الأفق ببصيص ضوء أزرق استعارت قمة الجبل منه خيوطاً شفافة، وبدأت تنسج حول رأسها غلالة زرقاء.

الأفيـــون

جون باركر. كابتن بقاعدة «هويلس»، منتدب للعمل بمعسكر يخضع للقاعدة، أقيم على جبل نفوسة في موقع استراتيجي. شغف بفلسفات الشرق منذ أن كان طالباً بكلية الاستشراق بجامعة كاليفورنيا. قرأ الزرادشتية والبوذية والصوفية الإسلامية. وعندما التحق بالبحرية وجاء إلى شمال أفريقيا عام ١٩٥٧، انتهز الفرصة وتفرّغ لدراسة الطرق الصوفية. وعندما اتخذوا من تونس محطة عبور وهم في طريقهم إلى طرابلس انفصل عن زملائه (الذين لجأوا إلى خمارة لقضاء السهرة) واختار أن يزور حلقة ذكر. وبرغم تشدد التعليمات بشأن ارتياد الأماكن الدينية والمشبوهة في قانون البحرية الأميركية إلا إن موظف السفارة لم ير بأساً في أن يلبي رغبته، فرافقه إلى حضرة الدراويش المهتاجين الغائبين في الذكر والوجد. ولكن تلك كانت تجربة شقية. لم تمض لحظات على وقوفهما بجوار الزحمة حتى سلّط عليهما بعض المتطرفين الصبية فرجموهما بالحجارة وطردوهما من الحلقة.

عاد إلى الباخرة بعدد من الكدمات، وسخر منه الزملاء المخمورون، وقالوا له إن معاقبة الفضوليين الأغراب بالرجم تقليد قديم في الشرق.

وأكثر ما أثاره ذلك الرأي الذي أورده مؤلف فرنسي في كتاب «الصوفية في شمال أفريقيا» فقال إن المغرب العربي هو الذي أنزل الصوفية من عرش

الفلسفة السماوية إلى أرض الحياة اليومية. ففي هذه البلدان، خلاف المشرق، لا تستطيع أن تميّز بين الشيخ الحكيم أو الدرويش الأبله أو الولي الصالح لأنهم يشبهون جميعاً المتسول المتشرّد! ولذلك فإن الصوفية هنا ـ كفلسفة باطنية ـ هي أقرب منها إلى البوذية إذ لا فرق بين الإلّه في السماء والمتشرد على الأرض طالما لا يجد الإلّه حرجاً في أن يتخذ من باطن هذا الأبله مأوى له.

في الكتاب نفسه، وجد ذلك النص المثير الذي كان سبباً في إدمانه لحم الغزلان. مؤلف الكتاب نقل النص عن رحّالة صوفي مغمور. قال: «الحقيقة في الأنعام. في الغزلان حطّ الله السرّ وبذر المعنى. فمن ذاق لحم هذا المخلوق حطم في نفسه العجز ومزّق حجاب السوى ووقف على رؤيته في المقام». ولم تكن العبارة الصوفية لتمس فيه الجرس الغامض لو لم يهتم بآراء البوذيين الجسورة حول المخلوقات الخرساء. ففي الجامعة ردد أمام كارولين جملة غامضة استعارها من تعاليم «الزّن»(*) التي شغف بها في تلك الأيام، وتقول إن سعي الإنسان للوصول إلى مرتبة الإلّه لن يتحقق إلا إذا مرّ الإنسان بحالة الحيوان، يعتزل حتى يستوحش، يخرس حتى يفقد القدرة على النطق، يقتات على العشب حتى ينسى طعم الطعام. والخالق أكثر ميلاً للحلول في المخلوق المتوغل في البرية، المقطوع في الخلاء، ويبتعد حتى عن الحيوانات التي تستأنس الناس ولا تختار منفى البرية.

قال لها كلاماً كثيراً من هذا النوع وارتكب خطأً قاتلاً، فنسي أن ينبّه الفتاة (التي كانت مفتونة به) إلى أنه استعار النص من معجم البوذيين، فكانت النتيجة أن اتهمته بالجنون وتخلت عن عشقه.

(*) الزّن أو «تسن»: مدرسة بوذية يابانية أسسها تسن في القرون الوسطى المتأخرة وتقوم على مبدأ أن الحقيقة خارج الكلمات ولا يمكن الوصول إليها إلاّ بالإيماء. وقد كان لمفاهيم هذه المدرسة تأثيرات جمالية وأخلاقية على فلسفات أغلب كتاب اليابان في القرون التالية.

النص الصوفي المغمور ذكره بـ «الهذيان» الذي حطم أول علاقة له بامرأة، فانتهز فرصة عزلته في الجبل الغربي، وقرر أن يكتشف السرّ، ويتذوق لحم الحيوان الأسطوري علّ الله يفتح له الباب، فينعم برؤية الله في المقام. وأدهشه إجماع المتصوفة على اعتقاد أن الأنعام أجدر بالولاية وتقمص الروح السماوية من بقية المخلوقات فوجد سنداً قوياً لتعاليم «الزّن» البوذية في هذا الرأي. فيولون الحيوان اهتماماً يفوق الاهتمام بالإنسان. كما فضلوا حيواناً على آخر، فاستثنوا الوحوش واستبعدوها من الرحمة، وخصوا الحيوانات المسالمة بالولاية. وقد ذهب ذلك الصوفي المغمور في رؤياه، فوضع قائمة طويلة للأمراض الخفية التي لم يعرف لها علاج إلاّ بالغزال. وبمجرد أن أعلن للأهالي عن رغبته في الفوز بالغزلان، دلّوه على قابيل آدم. قالوا: إذا حلت مصيبة واندثر الغزال في الصحراء ولم تبق سوى شاة واحدة فلا شك أن قابيل سيكون آكلها! وسردوا الأساطير عن نهمه وحبه للحم. الدرويش قال له بلغة غامضة: «في فم هذا المخلوق دودة تجعله يأكل نفسه إذا لم يجد لحماً يأكله». كان شيخاً وحيداً يجلس مسنداً ظهره إلى جدار الجامع، يستقبل أشعة شمس الأصيل كل يوم، لا يخالط الناس، ويتحاشاه الأهالي لغرابة آرائه في الدين والدنيا. وبرغم تحذيرات جنرال القاعدة في طرابلس من الاحتكاك بالأهالي إلا أنه لم يستطع أن يقاوم الاغراء فتحدث إلى الشيخ الذي ينعته الآخرون بالزندقة إلى جانب الدروشة. ويبدو أن تجنّب الناس له ناجم عن صراع الشيخ مع شيوخ الطرق الصوفية الأخرى. إذ رافقه مرة إلى حفلة ذكر مزّق فيها المجذبون وجوههم وصدورهم، ولوّحوا بالسكاكين في غيبة الوجد، فقال له وهو يقف به بعيداً عن الجمهرة:

ـ انظر إلى زنادقة التيجانية(*) كيف يخترعون البدع ويسيئون إلى التصوّف والإسلام.

(*) التيجانية: طريقة صوفية أسسها في القرن التاسع عشر الشيخ أحمد التيجاني.

في طريق العودة، باغته جون بالسؤال:

ـ هل يسكن الله الغزلان في طريقتكم؟.

صمت طويلاً ثم قال كأنه يحدث نفسه:

ـ كل الأرواح مسكونة بالله. وحصره تعالى في الغزلان أمر من قبيل الزندقة.

التفت نحوه وقال:

ـ هذا من بدع التيجانية.

جون قرأ تناحر الطرق الصوفية في شمال أفريقيا، وعلم من الدرويش أنه من أتباع الطريقة القادرية(*). وهذا ما جعله يحظى بالاضطهاد. إذ ألّب عليه شيوخ التيجانية الأهالي. وقد فوجىء جون باركر ليلتها بآراء ذلك الدرويش عندما قال له مواصلاً مسألة حلول الله في الكائنات الأرضية:

ـ خلافنا معكم يا معشر المسيحيين يكمن هنا. أنتم تقولون إن المسيح هو الله وتحصرون جلالته في مخلوق واحد(**) في حين نرى أنه موجود في كل الناس، بل في كل الكائنات. ديننا أعدل من دينكم.

الدرويش الحكيم أخبره أن يغيّر من نظرته إلى أسلوب الصوفيين في الحياة. وكلما توغل في اهتمامه، اكتشف حقائق جديرة بأن تؤخذ بالجدية.

علّمه درويش القادرية أسراراً كثيرة عن الحياة. وبعد أن توطدت علاقته بقابيل وأصبح يزوّده بلحم الغزال اكتشف أن الرجل، مثله مثل البوذيين في

(*) القادرية: نسبة إلى العالم الإسلامي عبد القادر الجيلاني الذي أسس هذه الحركة في القرن الثاني عشر الميلادي.

(**) هذا رأي مستمد من فلسفة محيي الدين بن عربي الذي يرى أن الله يحل في كل الموجودات ويعتبر أن خطأ المسيحيين ليس في تأليه المسيح وإنما في حصر الله في ذات إنسان واحد.

التبت والهملايا، لا يأكل اللحوم ويعيش على خبز الشعير. برغم أنه أسرّ له مرة في حديث عابر بأمر الودّان. قال بلهجته الخفية عندما ينوي أن يبوح بسرّ لا يعرفه غيره: «الزيت غريان. التمر فزّان. واللحم.. ودّان!». ثم ضحك وأضاف: «آه، لو عرف زنادقة التيجانية أنني أبوح بأسرار الصحراء للنصارى! سيرجمونني بالحجارة». صوّب نحوه نظرة طويلة، وقال باللغة السرّية نفسها: «ولكن الودّان شيء آخر حقاً. تذوقته في الزمان القديم عندما كنت آكل اللحوم. السرّ الإلّهي في الودّان».

تذكر هذا الحديث الآن لما جاءه قابيل وأخبره باندثار الغزال في الصحراء، وطلب منه الهليكوبتر لتمشيط جبل الحساونة. قال:

ـ شوهدت غزالات طائشة هناك. جبل الحساونة آخر معقل للغزلان.

قال جون:

ـ ولكنك تعرف أن تمشيط الصحراء بالهليكوبتر ممنوع. التعليمات واضحة.

ـ اللّي يبّي الورد يتحمّل شوكه. هل تعرف هذا المثل؟.

ـ ها.. ها.. اللّي يبّي الورد يتحمّل شوكه صحيح. ولكني لا أعرف أيّنا يحب الورد أكثر. أنا أم ذلك المخلوق الذي يأكل الدود أسنانه ولا يستطيع أن يصبر عن اللحم يوماً واحداً؟.

ضحك قابيل، ولكن الدعابة جرحته. وجهه الأحمر كتم غيظاً. قال جون:

ـ انتهينا من الغزلان وجاء الأوان كي نتولى أمر الودّان.

ـ آه، الودّان.

صمت ورشف من الشاي. قال:

ـ صيد الودّان صعب. يعتصم بظلمات الجبال في الصحاري الجنوبية. الرحلة إلى هناك تحتاج إلى استعداد. لا بد من قوافل السيارات والخبراء، وأنت تبخل بطائرة هليكوبتر لتمشيط جبل الحساونة. اللّي يبّي الورد يتحمّل شوكه يا جون. وشوك الودّان أقوى من شوك الغزلان!.

ـ والله لا أعرف أيّنا لا يريد أن يحتمل الشوك. أنت لا تريد أن تحتمل أشواك الصحراء. تريد أن تقطف الثمار ولا تريد أن تتعذب بالشمس والغبار. تريد أن تصطاد الغزلان بقفازات من حرير.. ها.. ها.. ها... أنت لا تحب الصحراء. الشيخ جلّولي الذي يعتبره شيوخ بلدتكم درويشاً يقول إن الماء يطهر الجسد، والصحراء تطهر الروح. لم أر فيكم أخلص منه للصحراء برغم أنه لا يتمتع بخيراتها مثلكم ولا يأكل غزلانها. أنت يا قابيل تأكل الغلة وتسب الملّة، والصحراء لم تطهرك لأنك لم تعشقها. والآن تريد قوافل كاملة كي تقلّك لغزو الودّان في الصحاري الجنوبية. تريد أن تبتزني كما ابتززتني طوال السنوات الماضية في خصوص الغزلان. أنت أناني، جشع، كسول..

لم يبد الغضب على قابيل. ابتسم ببلاهة، ثم قال بتسامح:

ـ إذا قمت بإبادة الغزلان فبفضل مساعدتك. زودتني بالسيارات وبنادق الخرطوش، وأكلت من الغنائم نصيبك وأكثر من نصيبك. أنت الذي أبدت الغزلان في الصحراء بعد أن صدعت رأسي بالخرافات عن الأسرار الإلّهية المدسوسة في لحم الحيوان المسكين. أنت أكبر مجرم. تغازل الغزلان وتصفها بالبراءة، وتنهش لحمها مدّعياً البحث عن سرّ لا وجود له إلا في رأسك الكافر. تدّعي الرفق بالحيوان وأنت أجشع منّي ومن كل آكلي اللحم في الصحراء. الدودة التي تدغدغ أسناسك أشرس من الدودة في أسناني.

ولم يكن ثمة مفرّ من غزو جبل الحساونة لتمشيطه من الغزلان التي ادّعى بعض العابرين مشاهدتها. غادرا بالطائرة المروحية في رحلة سرّية،

دمغها الشيخ جلّولي باللعنات. فمنذ أن علم الشيخ بأمر مذابح الغزلان، قاطع جون وأمسك عن مصافحته، ورفض الرد على تحيته، وبعث له بالوعيد واللعنات مع الوسطاء. اصطدم به جون في أحد أيام الجمعة بجوار سور السوق القديم. طأطأ جلّولي رأسه، وحاول أن يتخلّص، فاعترضه جون. تمتم الشيخ بألم:

ـ كيف تدّعي الديانة بدين المسيح وهو بريء منك؟ لا أنت منه ولا هو منك.

ولفّ عباءته حول رأسه واختفى في الزحام. لم يره منذ تلك المصادفة، ولم يستطع أن ينسى تعبير الألم في عينيه لحظة نطق بكلماته القاسية. لحظتها فقط شعر جون ببشاعة جريمته ضد أجمل المخلوقات. ولكن ماذا يفعل إذا كان لحم الغزلان مثل الأفيون، من ذاقه تعوّد عليه، ومن تعوّد عليه جنّ بدونه؟.

لحم ذوي القربى

الأصيل.

في الأفق، لاحت قمة الجبل، ما زالت ملفوفة بالقناع الأزرق. مع تقدّم النهار وعجرفة الشمس، يبهت النسيج ويتحوّل إلى اللون السماوي. القمة الجبلية الوحيدة في الصحراء التي ترتدي قناعاً سماوياً.

يروق لفجر الخلاء المبكر أن ينسج للجبل عمامة زرقاء تقيه تقلّب مزاج الطبيعة في الصحراء. بجوار قائد الطائرة جلس قابيل. وتجاور جون مع مسعود في الكرسيين الخلفيين. قائد الهليكوبتر زنجي، يتوّج وجهه أنف مثالي الحجم. يبدو متجهّماً، صارم الملامح، ولكن قتامته سرعان ما تنقشع بمجرد أن يبتسم. فمه مرصّع بأسنان بديعة ناصعة، وضحكته آسرة. وإذا انفجر ضاحكاً فمن الصعب أن يتوقف حتى لو نهره الكابتن جون باركر أو وخزه بمهمازه الأنيق.

حلّق «الجندب الخرافي» في الفضاء الصافي وعبر سهول الحمادة الخالية الصامتة. في متاهة العراء تتناثر أشجار سدر وطلح ورتم، تنمو متباعدة في السهول وقد تتزاحم في بعض الأودية التي فازت بالسيول أخيراً. كما تظهر بعض الأعشاب متشبّثة بالشعب المنحدرة من المرتفعات. العشب لا يزال أخضر في بعض المناطق. أعشاب المنحدرات أكثر استئثاراً بالماء الفائض عن المرتفعات.

الطيور هاجرت إلى الشمال.

طوال الرحلة لم يعترضهما سوى طائر واحد، يطير على ارتفاع عال، ويندفع في الفضاء محركاً جناحيه في إيقاع من عقد العزم على أن يقطع مسافة طويلة. كان مهاجراً أيضاً.

كل شيء يهجر الصحراء مع اقتراب الصيف، فيبقى الخلاء يعاند السراب والسكون وشعاعات الشمس.

لم يقع بصرهم على غزال واحد طوال الطريق.

الغزال لم يهاجر إلى الشمال كالطيور وإنما في الاتجاه المعاكس: نحو الجنوب.

أطل قابيل من نافذة «الجندب»، وأشار إلى جرح يكاد يلتئم في الأرض الرمادية المعتمة، وقال:

ـ هل رأيتم؟ هذا طريق الغزلان المهاجرة.

الخيط الرقيق في جسد الأرض القاسية المفروشة بالحجارة السوداء قاد إلى جبل الحساونة. دار الجندب العظيم حول الجبل من حدوده الشرقية، وطار بمحاذاته جنوباً، فبدت الصحراء الرملية الممتدة على مدى البصر. في عمق الرملة شاهدوا رؤوس النخيل وهي تتجمع وتتناطح كأنها تتمتم لبعضها بالتعاويذ السرية الخاصة بمقاومة العجاج.

هنا تنتهي الحمادة.

هنا يبدأ بحر الرمل العظيم، الرافد الأبدي للمتاهات المجهولة.

في هذه المفازة تختفي المخلوقات الفارّة من مجازر الخلق.

انحرف الجندب الطائر راسماً دائرة واسعة، التزم سفوح السلسلة، وظلّ يحوم على ارتفاع منخفض حتى انتصف النهار. فاضت أنهار السراب،

وهددت بجرف أقدام الجبل.

يئس جون باركر، وشعر قابيل بالملل. سلخ العرق الحار صدغيه. صرخ جون حتى يكتم هدير المحرك:

ـ لا أثر لغزلانك في جبل الحساونة.

فأجابه قابيل بصرخة خائبة:

ـ الرعاة شاهدوها منذ أيام فقط. فمتى احتمت بالرملة؟.

تلاشت العمامة السماوية عن قمة الجبل، فكشفت عن صلعة قاسية.

صرخ جون:

ـ يجدر بنا أن نعود.

ساد صمت كئيب. استمرت المروحة الشيطانية تدور كالطاحونة. تسكع الجندب اللئيم عبر سفح السلسلة متفقداً التجويفات والصخور والمنحدرات العارية حتى بدا، عن بعد، مثل صقر في بحثه العنيد عن فريسة.

حطوا عند حذاء الجبل.

بحثوا عن مأوى يحميهم من شرّ الشمس. الكهوف الظليلة تعتلي أعالي الجبل. الطريق إليها يمر عبر صخور ملساء وأخرى متوحشة، مسلحة بأحجار كأنياب الوحوش. بين الأحجار تشبثت أعشاب برية عنيدة محاطة بألسنة رملية متناثرة. على انرمل الناعم ارتسمت آثار الأفاعي والسحالي والعظاءات وجرذان الصحراء.

فوق الرمال الذهبية، عثر قابيل على آثار أخرى: الغزلان!.

هل هو قطيع؟ أم الغزلان نفسها التي تحدث عنها الرعاة؟.

تقافز بين الصخور وهبط الجبل كالمأخوذ. صاح:

ـ الغزلان. الغزلان. إلى الطائرة.

تدافعت الجماعة إلى «الجندب»، فأضاف قابيل لاهثاً:

ـ الآثار ما زالت جديدة. وجدت روثاً أيضاً. إنها تختبىء في مكان قريب هنا.

ظلّ واقفاً بجوار الطائرة، يمسح العرق عن وجهه، ويلهث من الانفعال والإعياء.

في تلك اللحظة رآها. تستظلّ بصخرة كبيرة، من الجهة اليمنى من السفح حيث تنشق شعبة ضيقة وتنحدر إلى أسفل حتى تفضي إلى الوادي. عيناها كبيرتان، سوداوان، ذكيتان، تنطقان بلغة مجهولة، تحدثه بشيء ما، تبوح له بسرّ ما. نعم. نعم. سرّ يحسّه، ولكن لا يدركه. أقسى شيء، أشقى ما في الوجود أن تحس بالسرّ وتعجز عن إدراكه. ماذا تريد أن تقول المخلوقة الجميلة؟.

تبادل معها نظرة طويلة. لم تتحرك. بجوارها تقف غزالتها الصغيرة، ترمقه أيضاً بنظرة غامضة. تنطق أيضاً، توافق أمّها على ما قالته، تؤيدها. ما أقسى أن تجهل لغة الأنعام! لم يشعر بالرهبة فقط ولكن بالخوف. لم يشعر كيف انتزعه مسعود وسحبه من كمه. كان الطيار الزنجي يتضاحك كاشفاً عن أسنانه النضيرة، ويردد:

- O, my God! What's he Waiting for?.

جلس على المقعد غائباً. العرق ينز بغزارة أكبر. أنفاسه تتلاحق. جون يتكلّم وكذلك مسعود. ثلاثتهم يتكلمون. ويعلّقون. يبدو أنهم لم يشاهدوا ما حدث. لم يلحظوا اللقاء.

طارت الطائرة.

ولكن قابيل لم يفق. حارب الغزال واصطاد منذ أن وعى الدنيا، ولكنه لم يحدث أن رأى إنساناً في غزال.

اندهش كيف لم يطلق عليها النار. نسي البندقية نهائياً. نسي أنه جاء في رحلة صيد. نسي أنه قابيل ابن آدم المجبول على الدم واللحم. لم يصدّق أن قابيل يمكن أن يمتنع عن الضغط على الزناد وغزالة هيفاء تنتصب أمامه. ولكن هل كانت تلك غزالة حقاً؟ وهل كان هو قابيل حقاً؟.

حلّق الطائر في الفضاء. تابع امتداد الجبل غرباً متعمداً الطيران على ارتفاع منخفض.

علّق مسعود:

ـ عشنا وشفنا الغزلان تتطاول في الجبال.

لم يستجب لتعليقه أحد فاضطر أن يستنتج:

ـ الحكماء يقولون إن هذا من علامات القيامة!.

تحرّك الهواء في الأعالي، وبردت خيوط العرق، ولكن الوجوم استمر. تطوع جون بمحاورته:

ـ شيوخكم يرون في كل ظاهرة طبيعية إشارة سماوية وعلامة من العلامات.

ضحك مسعود وقال:

ـ معك حق. لو صدقت نبوءاتهم لقامت القيامة حتى الآن ألف مرة على الأقل.

ثم حدج جون وقال بخبث:

ـ ولكن أصدقاءك شيوخ الطريقة يرون ذلك أيضاً.

ـ الجلّولي لا يرى ذلك. لم يحدثني يوماً عن إشارات القيامة.

ـ لأنه دنيوي. ولهذا استحق عداء بقية الطرق.

ـ ربما كان العكس. هم الدنيويون وهو المارق لأنه خالفهم. جلّولي ربّاني وفاضل.

ـ مجرد أن يقول عنه نصراني هذا الكلام هو تهمة وزندقة.

ـ هل هذا رأيك أم رأي شيوخ البدع؟.

ـ ها.. ها.. ربما كان رأيي أيضاً.

ـ لا نجاة من كيد الخلق.

ـ ها.. ها.. هذه عبارة من قاموسه. لا شك أنه داهية ما دام يستطيع أن يروّض حتى النصارى. الشيوخ لم يقدروا خطورته. ها.. ها..

لم يشترك قابيل في النقاش. أمّا الزنجي المرح فيجلجل بالضحكات دون أن يفهم شيئاً من الحوار.

انقطعت السلسلة الجبلية، فأمر جون مرؤوسه بأن يستدير ويعود في نفس الاتجاه.

الدورة شملت مساحة واسعة. طاروا فوق الوادي قبل أن ينحرف السائق نحو الجبل مرة أخرى.

ترصدوا سجّاد الأحجار القاسية من زجاج النوافذ.

قال جون يداعب قابيل:

ـ لا أعرف كيف سيتحايل قابيل على السوسة في أسنانه. بين أسنانه ترقد أشرس دودة عرفها الإنسان.

انتهز قابيل الفرصة:

ـ نعم. لا أثر للغزال. يحسن بنا أن نعود.

في تلك اللحظة صرخ الزنجي:

- O! Look! Look.

لمع زغب الأم بين الصخور القاتمة واختفت بالسرعة نفسها التي ظهرت بها. طار الزنجي نحوها وحلّق فوق التجويف رآها تندس في العتمة، في فوهة التجويف، محاولة أن تحمي وليدتها بجسمها.

كانت ترتعد.

حلّق الجندب فوق فوهة التجويف بالضبط. صرخ الزنجي:

- Fire!

ثم تبعه مسعود وجون في صوت واحد:

ـ أطلق النار!.

هو أيضاً يرتعد. صوّب فوهة البندقية نحو التجويف، فالتقت نظراتهما. أشاح بوجهه، وأغمض عينيه، وضغط على الزناد. انبثق الدوي، ومسح العرق المتدفق على وجهه بمعصمه. هرجة الجماعة صدعت رأسه، وابتلعت حتى هدير المحرك. التفت نحو التجويف، فرأى الصغيرة تنتفض على الأرض. أما الأم فتقف فوقها. تقطر منها الدماء، تلعق الدم عن وليدتها الصريعة. ثم قفزت فجأة، ونطحت جدار التجويف الصخري برأسها في وحشية. في عينيها الآن تعبير آخر تماماً: هل هو الشقاء؟.

وثبت إلى العراء، ورفعت رأسها نحو السماء الصافية الممزقة بأشعة الشمس وهي تعوي بفجيعة الذئاب الجائعة. لأول مرة يُسمع غزال يعوي كالذئب.

ثم هوت على الأرض، ورقدت على جنبها الأيمن، ومدت رأسها نحو القبلة. بقي التعبير المخيف في عينيها، فلم يستطع قابيل أن يقترب.

تقافزت الجماعة نحوها.

في يد مسعود، لمع السكين.

في تلك الليلة، لم يقتل قابيل ابن آدم أخته فقط، ولكنه أكل لحمها أيضاً.

التمائـــم

ذاق لحم الودّان مرّة واحدة.

جاء بالشريحة تجار القوافل من أغاديس، وأهداه جاره قطعة كبيرة مجفّفة.

نهش منها جزءاً، وترك الباقي للوليمة. اتفق مع مسعود وجون باركر على أن تكون الوليمة ليلة الجمعة في وادي السدر الذي يرسم لواحتهم الجبلية حدوداً طبيعية مع الحمادة من الجهتين الغربية والجنوبية.

أرسل قابيل مع أحد الصبية توصية إلى مطلقته كي تعدّ له البهارات والتوابل اللازمة لسلق اللحمة السحرية. ومطلقته امرأة فارعة القامة، ذات ملامح جميلة ولكن قاسية، وربما أعطتها طبيعتها العصامية هذه المسحة الرجولية. تقيم عند أهلها، ولكنها تنفق على نفسها. تغزل الصوف، وتنسج الجرود والعباءات، وترسلها إلى السوق. ويقال إنها هي التي بادرت إلى طلب الطلاق، وبررت هذا العمل بالقول إنها تريد أن تنجو قبل أن يأكلها الوحش لأنها رأت حلماً قضى فيه زوجها على الغزلان في الحمادة ثم عاد إلى البيت، فلمّا لم يجد لحماً قفز عليها ونهشها. وهي لا تكف عن حمد الله لأنها لم تنجب منه أولاداً. حصلت على الطلاق من القاضي بعد موافقة قابيل، ولكن هذا الحدث لم يدفعها إلى مناصبته العداء بل ان علاقتهما ازدادت دفءً وانسانية. فشوهدت كثيراً وهي تبعث إليه بقصعة

كسكسي مع الصبية أو تنحني لغسل ثيابه بجوار البئر.

في الحفلة، فوجىء بالتمائم.

ليس مسعود وحده الذي أتى يحيط عنقه بالحجاب وإنما جون أيضاً. تربع بجوار الموقد، وأخرج الحصن الجلدي المرسوم بإشارات السحرة الزنوج، ولوّح به أمام وجهه متباهياً. تناوله قابيل، وقلّبه بين يديه ثم قال:

ـ هـذا وشم شياطين «كانو». هـذه خطوطهم. هـذه رموزهم. من أين لنصراني أمريكي يعيش معلقاً في جبل نفوسة بحصن الجنّ هذا؟.

تضاحك جون ومسعود. غمز الشيطان بعينه، وقال مسعود وهو يحشو جوف الموقد الكبير بالحطب:

ـ الفضل يرجع لي. قدته إلى الشيطان الزنجي الذي جاء مع القافلة. صنع لي حصناً مماثلاً.

فكّ أزرار قميص الكاكي، فبرزت قطعة الجلد، موشومة أيضاً بالرموز السحرية.

صاح قابيل:

ـ استغفلتموني. لم يقل لي أحد أن الأحجبة ضرورية لوليمة الودّان.

قال مسعود:

ـ ومن لا يعرف هذا؟ حتى الأطفال في الجبل يعرفون هـذا. الودّان مسكون. روح الجبال. ومن ذاقه مرةً لا بد أن يتسلّح بالحجاب. الأرواح ليست لعبة. كل شيء جائز إلّا اللعب مع الأرواح.

داعب حصنه وقبّله، ثم عاد فأخفاه خلف القميص، وأضاف:

ـ إذا كان جون اهتدى إلى السرّ فكيف تجهله أنت؟.

ـ ومن غيرك هداه إلى السرّ يا شيطان؟.

ـ أنا هديته إلى حكيم القافلة وليس إلى السرّ.

ـ من هداه غيرك؟.

ـ سله.

ضحك جون، وقال وهو يحدج البخار المتصاعد من القدر:

ـ لا تنس أني أصادق شيخ الطريقة القادرية الذي تتهمونه بالدروشة.

ـ هل تصالحتما؟.

ـ ما زال مصرّاً على القطيعة. لم يغفر لي مذابح الغزال. قال لي إني لست من دين عيسى ولا دين عيسى مني. يتحاشى لقائي..

ضحك قابيل:

ـ معه حق. أنت أكبر مجرم دخل هذه البلاد. من أدخل اللاندروفر والخرطوش والجنادب الطائرة إلى الحمادة غيرك؟.

ـ وأنت قبطان الرحلة. فعلنا كل ذلك كي نسكت الدود في أسنان قبطان الرحلة.

رنّت ضحكاتهم في الخلاء.

قال مسعود:

ـ آه لو رأيت الزنجي الفظيع وهو يستجوب جون لمتّ من الضحك. تفحّصه طويلاً بعينيه الحمراوين، ثم سأله: ما اسم أمك؟ قال جون: ألا يكفي اسم أبي؟ قال الساحر: هذا شأني. بدون معرفة اسم أمّك لن يستقيم شيء. قال جون: ولكن أبي هو أبي. نفد صبر الزنجي، فصرخ: أمّك هي التي ولدتك ولكن أباك مشكوك في أمره. ضحكت فأخرسني

الشيخ بنظرة قاسية من عينيه الحمراوين. قال جون: كلّكم تشكّون في نساء النصارى وترون أنهن مستهترات لعوبات. قال الساحر: نحن نشك في كل نساء الأرض. المرأة هي المرأة. رفيقها الشيطان سواء كانت من «كانو» أو من جزر الواق واق. ونحن معشر علماء الغيب لا نضمن أبوة أحد لأحد لأننا نرى الأشياء كما هي بدون أوهام. فهل تريد أن تبوح باسم أمك أم تريد أن تخاطر بأكل اللحم المسكون بدون حجاب؟ هنا استسلم جون واعترف باسم أمّه.

ارتفعت حناجرهم بالضحك، فتلاشى الصدى عبر المدى والصمت والظلمات.

عاد قابيل إلى الموضوع:

ـ هل كُتب عليّ أن أكون الوحيد بينكما الذي يذوق لحم الودّان بدون حصن؟.

ثبّت مسعود القدر على مثلث الأحجار، ودسّ الحطب تحته. علّق:

ـ لا خوف عليك. أنت الوحيد المفطوم على دم الغزال. أنت روح الخلاء، والودّان روح الجبال. والروح محصنة من الروح بقدرة ربّي.

كرر قابيل التعويذة القديمة غائباً:

ـ الزيت غريان. التمر فزّان. اللحم ودّان. الله! الله! اللحم ودّان! اللحم ودّان، ولم يقولوا غزلان!.

عمّ السكون، واشتدت كثافة الظلمات.

أزاح قابيل أعواداً تلتهمها النيران، ودحرج جمرات ملتهبة جانباً، وضع عليها وعاء الشاي. أمّا مسعود فلم يتوقف عن تزويد نار القربان بالحطب.

قال جون:

ـ قرأت عن السرّ في الغزال. ولكن يبدو أن الصوفي المغمور لم يكن دقيقاً. منذ أيام ذهبت إلى مكتبة القاعدة بطرابلس وبحثت في الموسوعة عن المعلومات بشأن الودّان. هل تعرفان أن هذا الحيوان انقرض من العالم منذ القرن السابع عشر؟.

تبادل مسعود نظرة مع قابيل. استمر جون وهو يراقب ألسنة اللهب:

ـ آخر شاة أصابها أمير فرنسي عام ١٦٢٧، فكيف ظهر في الصحراء الكبرى؟.

قال مسعود:

ـ صحراؤنا مأوى لكل الكنوز بما في ذلك الحيوانات المنقرضة. لا تستغرب.

راقب النار وهي تلتهم الحطب. همس حالماً:

ـ إذن سحرتكم على حقّ. إذا كان السرّ في الحيوان المنقرض، فالأمر يستوجب القرابين والتعاويذ.

لم يكن جون باركر هو نفسه جون باركر في تلك الليلة. استعار صوته همهمات الجن في المرتفعات، واكتسب سحر السكون في الصحراء، فتحدّث كأحد الكهنة المجوس.

الرؤيـــا

قبل تلك الرؤيا لم يظن قابيل أن يوجد حيوان في الأرض له عينان يمكن أن تنافسا الغزال في النطق والسحر والذكاء. رأى عينين لا مثيل لهما في الحيوانات، بل في مخلوقات الدنيا كلها. والسرّ ليس في جمالهما كعيني الغزال ولكن في غموضهما. تقولان كل شيء، تقولان حتى تلك الأشياء التي تعجز الكلمات عن التعبير عنها، دون نطق أو لغة.

فبعد وليمة ليلة الجمعة لم يذق طعماً للّحم مدة أسبوع. فشل مسعود في أن يدبّر خروفاً بالدين من السوق، فلزم الفراش، وحطّم رأسه الصداع، ونخر السوس أسنانه، وعانى من الغثيان.

ومع المساء اشتدت عليه الحمّى، وتقيأ مراراً. زاره مسعود، وجاء له من مطلقته بحساء الحلبة. رفض أن يحتسي الحساء لمّا اكتشفت أنه لا يعبق برائحة اللحم. قال مسعود:

ـ هذا مفيد. يشفي الحمّى.

دفع الطبق، وردد في غيبوبة:

ـ شفائي في اللحم. أنت تعرف. رأسي يتكسّر. لم أعد أحتمل.

لم يكن الحصول على اللحم في تلك السنوات أمراً سهلاً. ولا ينحر الأهالي في الواحة الذبائح إلا في عيد الأضحى ونادراً ما يتعاونون في

تجميع القروش لشراء معزاة أو خروف، ليقسم اللحم في حصص صغيرة، ويوزع على عائلات المساهمين. وفي السنوات التي يرق فيها قلب السماء وتنزل الأمطار السخية يغامرون بالمساهمة في نحر جمل ينال منه الفقراء العاجزون عن الدفع نصيبهم، لأن التصدق من الذبيحة في مثل هذه المواسم أمر يفرضه التقرّب إلى السماء التي لم تبخل عليهم بالأمطار.

أما في الشهور العادية فلا يطمع الفقراء في أن ينالوا من الذبائح، فيوصدون أبوابهم، ويطفئون النيران في بيوتهم، ويحبسون أولادهم حتى لا تثيرهم روائح اللحوم في البيوت الأخرى. وبرغم هذه التدابير فإن الكثيرين من المدمنين يسقطون صرعى المرض الخفي الذي يسببه الحرمان من اللحم.

وقابيل الذي أسرف في أكل اللحوم، ودلّل جسمه بألذ الأنواع، لم يخطر بباله لحظة أن يجيء يوم ينفذ فيه ذلك الاحتياطي الرباني من الغزلان الذي تعج به الحمادة.

لم يقرأ حساباً لأن يرقد أشرس صياد عرفته الصحراء في فراش المرض عاجزاً، يعاني صداع الحرمان من اللحم.

في اليوم التالي جاءه مسعود من معسكر جون بلحوم المعلبات، تن وسردين، ولحم آخر أحمر محفوظ في علبة وردية مستديرة قال له جون إنه لحم طيور.

كاد قابيل يتقيأ أمعاءه. حام حوله مسعود طوال الليل، ثم ترك مصباح الغاز فوق رأسه، وعاد إلى بيته. بعد خروجه مباشرة جاءه الودّان. على رأسه يقف قرنان هائلان معقوفان إلى الوراء حتى ظهره فيعودان ويتجهان نحو رأسه. في ضوء الفنار الخافت، رأى تلك العينين. هل همستا له بسرّ الخلق؟ هل تحدثتا عن تكوّن الصحراء والكون؟ هل قالتا شيئاً عن اليوم الآخر؟ هل سردتا رواية عن خيانته للغزال؟ هل وعدتا بالقصاص؟ تبادل

معهما الخطاب والأدوار. غاب فيهما وغابتا فيه، فلم يعرف أين هو ولا من هو. هو الودّان، والودّان هو قابيل.

دعاه الحيوان الخفي إلى رحلة. تاها معاً في الصحراء. عبر به الحمادة وهو يمتطي ظهره. عطش، وجاع، وحطّم رأسه الصداع، فوجد أن الودّان العظيم قد طار به عبر أمواج بحر الرملة، ودخل فلاة أخرى يغمرها السراب، وتتدفق على كثبانها أشعة الشمس. اشتد عطشه وجوعه وصداعه حتى كاد يسقط من جسم الحيوان العظيم. بلغ به صحراء جبلية سفوحها الوعرة مفتوحة الأفواه بالتجويفات الظلماء والكهوف المعتمة. تنقل الودّان بين الصخور القاسية في رشاقة مدهشة. هدّه التعب، ولكن الجوع كان أكفر من كل الأمراض. تململت الدودة الشيطانية في أسنانه، فنهش رقبة الودّان، والتهم قطعة لحم. ولكن الحيوان لم يتوقف عن القفز بين أحجار الجبال. غرس أنيابه في رقبته، ونهش قطعة أخرى. واستمر ينتزع اللحم من جسده من دون أن يتوقف عن العدْو، بل ان سرعته تتضاعف مع كل نهشة حتى كفت حوافره عن ملامسة الأرض وظلّت طائرة، معلقة في الفضاء. صعد الحيوان قمة جبل عالية، فاكتشف أنه يجلس على ظهر رجل بائس لم يعرفه من قبل، نحيل الجسم، طويل القامة، تقطر من رقبته الدماء. وقبل أن يفيق من هول التحوّل، رفع الرجل نحوه وجهاً شقيّاً وقال له: «لايشبع ابن آدم إلا التراب» ورمى به من القمة السماوية، فوجد نفسه يطير إلى الهاوية.

«ليبيا تصحّرت. القيظ اختلس الرطوبة، فناحت الحوريات مهدّلات الشعور، ونعين جفاف الينابيع والبحيرات».

الشاعر الروماني اوفيديوس
«التحوّلات»/ الكتاب الثاني
القرن الأول ق. م.

نزيـف الحجـر

تعجرفت الشمس بشعاعها مع الأصيل، فعجز أن يفتح جفنيه. الشمس بعد الشروق دائماً ساخطة، متغطرسة، انتقامية، لا تنكسر شوكتها إلا مع الزوال. عندما تدركها الشيخوخة، تركع ذليلة، تتوسل قبل أن تنكفىء نحو الفناء اليومي.

تذكر كيف قاده الودّان المجنون حتى ألقى به في الهاوية وتركه هناك معلقاً في فمها، ولولا السر العظيم الذي ورثه عن والده. لولا الصبر ـ السر الوحيد القادر على قهر الصحراء ـ لما نجا من تلك المصيدة. فهل ينقذه الصبر من هذه المصيدة أيضاً.

ولكن تلك الحادثة الفظيعة كانت في عنفوان الشباب. أما هذه المرة فإن العجز يجبره أن يدلي رأسه ويحني هامته وينكسر فوق الصخرة كما تنكسر الشمس المتغطرسة عندما تزول إلى الغروب. ولولا الشيخوخة لما استسلم مبكراً للحالة الثالثة. في حادثة الهاوية قاوم طويلاً قبل أن يعاني من تلك الحالة. بل صمد حتى انتزعه الودّان العجيب فغاب وتدحرج عبر السفح قبل أن تستولي عليه الحالة.. حالة العظاية المسكونـة التي يذبحهـا في الصباح ويضعها في المخلاة، وعندما يلقي بها في النار في الليل تفرّ من النار وهي ذبيحة. هـا هو الآن يبتعـد عن الحياة، ولكنـه لا يدخـل إلى الموت. إنه يقرع باباً يقع بين الموت وبين الحياة.

أمام الجسد المصلوب على الحجر وقف قابيل. ضرب رأسه بكلتا يديه كي يخفف من سطوة الصداع. تدلّى من فمه خيط طويل من اللعاب، ولمع تحت شعاعات شمس الأصيل، وسقط على الأرض. هبَّ القبلي فازداد جنون قابيل:

ـ قل يا عجوز النحس: أين خبأت إبلك؟.

تمتم الراعي بتعويذته:

ـ لن يشبع ابن آدم إلا التراب.

نطق بتعويذته وهو يغيب وراء باب بين السماء والأرض... بين الموت والحياة.

قرع قابيل رأسه بقبضته، وصاح في مسعود:

ـ تذكرت. الآن تذكرت. هذا هو الحيوان الذي جاءني تلك الليلة. هذا هو الشيطان الذي رماني في الهاوية. كيف أخذتني الغفلة؟ كيف نسيت؟ ما الذي جاء بي من هناك إلى هذا الخلاء الخالي؟ تذكرت. كنت أمسك بقرنيه. بقرني الشيطان ذاك. ها.. ها.. انظر بالله إلى قرنيه. أليست تلك قرون الشيطان الرجيم التي وصفها القرآن؟ ها.. ها.. ها...

تقاطر المزيد من اللعاب في خيوط رقيقة. وكلما تلّوى في ضحكاته الهستيرية، تدفقت خيوط اللعاب اللماعة حتى شعر مسعود بالاشمئزاز. مسعود لم يسبق له أن رأى قابيل بهذه الحالة، فأحسّ بقلق خفي. تقدّم من صديقه وتوسل.

ـ يكفي. هذا يكفي. ينبغي أن ننصرف. سنبحث عن اللحم في أقرب واحة. أعدك أنني سأعثر لك على لحم.

أزاح يده بشراسة، وصرخ:

ـ هل جننت؟ هل تمزح؟ هل تسخر منّي؟ قطعنا الصحارى وتعذبنا وجعنا وعطشنا ثم نعود إلى الواحات بدون ودّان؟ نعود إلى الواحات خائبين؟ امش! ابتعد!.

غارت عيناه في المحجرين، فازدادتا شراسة وقسوة. توجه نحو الخيمة. صاح:

ـ يحسن بك أن تنتزع من لسان هذا المنحوس أين يخبىء جماله بدل التخريف.

عبث في الصحون لحظات، ثم عاد إلى الساحة الرملية شاحباً. غارت الوجنتان أكثر فجحظت المقلتان. في حدقتيه بريق صعّد من قلق مسعود. القلق الخفي يشتد. رأى السكين تلمع في يديه وهو يتجه نحو ضحيته. ركض واعترض طريقه. توسل:

ـ ماذا تفعل يا قابيل؟أنت أصبت بضربة شمس. يحسن بنا أن ننصرف حالاً. أنا..

بلع ريقه بصعوبة، وأضاف وهو يسقط على ركبتيه ويركع أمام صديقه:

ـ أنا أعرف أين يخبىء جماله. سنذهب إلى «مساك ملّت». بضعة كيلو مترات من هنا.

ضحك قابيل بجنون، وقال ملوّحاً بالسكين اللامعة في الفضاء:

ـ لم أعد في حاجة إلى جمالك. لديّ جملي. لديّ ضحيتي. انظر! ألا ترى الودّان المعلق هناك؟ إنه ودّان. كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل؟ ها.. ها.. يا لي من أهبل!.

ضرب رأسه بنصل السكين وترنح. نهض مسعود، واعترض طريقه مرة أخرى، فدفعه قابيل بعنف. فقد توازنه وهو يخطو إلى الوراء. سقط على

الأرض، ونهض فوراً. أمسك بقميص قابيل فتمزق. حاول أن يختطف من يده السكين، فوجّه إليه قابيل طعنة وحشية. تحاشاها في آخر لحظة، فجرحه رأس السكين في معصمه. تدفق الدم وتساقطت القطرات على الرمل العطشان.

وقف قابيل تحت قدمي أسوف المعلّق في الجدار الصخري. رأسه يتدلّى على صدره. وجهه ذابل. ابيضت شفتاه، وتشققتا بالعطش والقبلي. جسده محشو في جوف الصخرة، يتحد بجسد الودّان. قرنا الودّان يلتويان حول رقبته كالأفعى. ما زالت يد الكاهن المقنّع تلامس منكبه كأنها تبارك الطقوس الخفيّة.

استدار قابيل كي يصعد الصخرة من الناحية الغربية، فحاول مسعود أن يعترض طريقه. شرّع ذراعيه كأنه يريد أن يأخذه بالحضن. همهم:

ـ العن الشيطان وارم السكين.

لوّح قابيل بالسلاح في الهواء مهدداً، فتراجع مسعود. تسلّق الصخرة من الناحية الأفقية. ضحك في وجه الشمس بوحشية، ثم انحنى فوق رأس الراعي المعلّق. أمسك به من لحيته، وجرّ على رقبته السكين بحركة خبيرة. . . خبرة من ذبح كل قطعان الغزلان في الحمادة الحمراء. لم يصرخ أسوف، ولم يعترض، ولكن مسعوداً هو الذي صرخ، فتردد صدى الصرخة في القمم المجاورة.

استجابت الجنيّات بالنواح في الكهوف، وتصدع الجبل. اسودّ وجه الشمس، وغابت ضفتا الوادي في المتاهات الأبدية.

ألقى القاتل بالرأس فوق لوح من الحجر في واجهة الصخرة، فتحركت شفتا أسوف، وتمتم الرأس المقطوع المفصول عن الرقبة:

ـ لا يشبع ابن آدم إلا التراب!.

تقاطرت خيوط الدم على اللوح الحجري. فوق اللوح المدفون إلى نصفه في التراب كتب بـ «التيفيناغ»(*) الغامضة التي تشبه رموز تعاويذ السحرة في «كانو» عبارة:

«أنا الكاهن الأكبر متخندوش أنبيء الأجيال أن الخلاص سيجيء عندما ينزف الودّان المقدس ويسيل الدم من الحجر. تولد المعجزة التي ستغسل اللعنة، تتطهر الأرض ويغمر الصحراء الطوفان».

استمر نزيف الحجر على اللوح المحفوظ في حضن الرمل.

لم يلحظ القاتل كيف اسودّت السماء وحجبت السحب شمس الصحراء.

قفز مسعود في السيارة. أدار المفتاح في اللحظة التي بدأت فيها قطرات كبيرة من المطر تصفع زجاج اللاندروفر وتغسل الدم المصلوب على الجدار الصخري.

موسكو ٢١ مايو ١٩٨٩ م

(*) التيفيناغ: أبجدية الطوارق.

يا قابيل: أين أخوك هابيل؟(*)

الدكتور: ديمتري ميكولسكي

(*) من تعليق للباحث حول رواية «نزيف الحجر» التي ترجمها بنفسه ونشرها بمجلة «سفيت» الموسكوفية.

استطاع القرن العشرون، الذي يشارف الآن على الانقضاء، أن يعطي نماذج رائعة في الأسطورة، سواء في مجال العلم الأكاديمي، أو الأدب الإبداعي. ضمن العلماء الوطنيين والأجانب الذين اجتهدوا على هذه التربة الصعبة، المعطاء في آن، يجدر أن نذكر: أ. ف. لوسيف، م. فريدلنبرغ، م. ي. بروبّا، م. ي. ستيبلين كامينسكي، ليفي برول، كلود ليفي ستراوس. كما بُعث التراث الأسطوري الماضي في ابداعات الألماني توماس مانّ، الكولومبي غابرييل ماركيز، الأرجنتيني بروخيس، المصري نجيب محفوظ، الفلسطيني أميل حبيبي، وأعتقد أن اسم الكاتب الليبي المعاصر إبراهيم الكوني يحتل مكاناً بارزاً إلى جوار هذه الأسماء الأدبية العالمية العظيمة. وسوف يتيقّن القارىء من ذلك وهو يقلب آخر صفحة من روايته المأساوية الشيّقة، التي تعرض ملامحاً أسطورية بأصول ساميّة، شرق أوسطية. استعيدوا معي إسمي البطلين الرئيسيين؟ اسمي النقيضين؟ قابيل وهابيل، أليس هذان اللقبان هما اسمان للأخوين الأسطوريين: ابني السّلف الأول آدم؟ فكما تفيد الأسطورة المدوّنة في الكتاب المقدس، الموروثة أصلاً، كما يبدو، من اليهود القدماء، مأخوذة من ثقافة أسلافهم، تلك الشعوب المتحضّرة التي سبقتهم في الظهور على المسرح التاريخي الآسيوي (الشرق الأوسط)، لدى الناس الأوائل،آدم وحواء أنجبا أخوان: أحدهما هابيل، تميّز بطيب الخُلق، وبرغم ذلك فإنه تمكّن أن يصبح صياداً

ماهراً، ثانيهما كان على خلق قاس وصارم، ولكنه استطاع أن ينجح في الفلاحة ليصبح مزارعاً بارعاً. في أحد الأيام قرر الأخوان أن يتقربا لله بأضاح وقرابين من ثمار عملهما، فأومأت الذات الإلهية بقبول قربان هابيل وتفضيله على تقدمة قابيل. مما أثار قابيل فَكَرِهَ أخاه وقام عليه فقتله. أخفى جريمته ولكن الذّات التي لا تخفى عليها خافية ما لبثت أن استجوبته بالسؤال الصارم: «يا قابيل: أين أخوك هابيل؟». منذ ذلك اليوم ساد اعتقاد لدى الإنسان القديم يفيد بأن فعل قابيل هو الذي وضع حجر الأساس للحسد والقتل والحروب. . .

حكاية قابيل وهابيل كانت معروفة لدى العرب منذ زمن بعيد، لسبب مبدئي يفترض أن هذه الأحداث جرت في وسط القبائل التي استوطنت، في الماضي السحيق، شبه الجزيرة العربية. وهم الأسلاف الأوّل للشعوب الساميّة قبل أن تهجر القبائل التي سميت فيما بعد باليهود، أمكنة معيشتها الأصلية وتستوطن أرض فلسطين. ولهذا السبب فإن الساميين الذين بقوا في وطنهم التاريخي، في الجزيرة العربية، وأصبحوا يسمّون العرب، أو الرّحل، البدو، استطاعوا أن يعرفوا أسطورة قابيل وهابيل في صيغتها الأصليّة. السبب الثاني، وهو سبب يبدو لي سطحيّاً، يرجع إلى قيام علاقات ثقافية مستمّرة بين العرب وجيرانهم من شعوب المنطقة التي تمتعت، في عصور متأخرة، بمستوى ثقافي متفوّق. من هنا قام احتمال آخر بإمكانية أن تصل سكان شبه الجزيرة العربية قصة الأخوين المتعاديين من مسيحيي المنطقة ويهودها وهم الذين تسنّى لهم أن يحتكوا بهم من خلال المقايضة والمعاملات التجارية، ومنذ ذلك الوقت حتى قبيل ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي اعتنق قسم من القبائل العربية الدّين المسيحي واليهودي واستطاعوا أن يعرفوا عن قابيل وهابيل من الكتاب المقدس، كما أمكنهم أن يعرفوا بقية الميراث الديني (بعهديه القديم والجديد)، فأصبحت نصوصه تراثاً في الفلكلور العربي (قبل ظهور

الإسلام) يتناقله البدو فيما بينهم في لياليهم العربية الطويلة حيث تغيب الشمس فتتسلل البرودة وتسري في الرمال، وفي تلك الأوقات التي يخرج فيها الرجال للمراعي وراء القطعان، فيضطروا للبقاء حول النار ليتدفأوا. .

ومنذ ورد النّص في القرآن الكريم عكف المفسرون وفقهاء العرب على ترديده وأوردوه وهم يضعون تاريخ الإنسانية بداية بالخلق. فلم تعد قصة قابيل وهابيل حكراً على التراث الديني اليهودي أو المسيحي وحدهما، ولكنها أصبحت تراثاً دينيّاً إسلامياً أيضاً، ليس في بلاد العرب وحدهم، ولكن في العالم الذي شملته الدعوة المحمدية كله.

هذا هو السبب الذي جعل هذه الأسطورة تدخل في رواية إبراهيم الكوني بهذا الشكل العضوي فنجد في الرواية حادثة ذات طابع خيالي، ولهذا، ربما، تبدو صعبة الفهم بالنسبة للقارىء غير العربي: إذ يفطم قابيل منذ الطفولة على دم غزالة، ليصبح إنساناً شريراً وعدوّاً لدوداً للعالم الحيواني الصحراوي. تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الحادثة تكتسب عنصراً نظيراً لها في أسطورة قابيل القديمة ففي إحدى الحكايات الشعبية الروسية القديمة عن حياة قابيل (وهي حكايات ذات أصول شرقية، سورية على أغلب الظنّ) يُروى أن القاتل الأوّل على الأرض رفض أن يرضع حليب الأم عند الميلاد. خاف الأبوان آدم وحواء على مصير الطفل فظهر لهما الشيطان في مسوح عابر سبيل لينصحهما بدهن شفتي الطفل الوليد بدم معزة سوداء، أي بدم الحيوان الذي يجسّد العداء للأصل البشري. أخذ الأبوان بالنصيحة، فرضع الطفل الثدي، وكبر قوي الجسم، صحيح البُنْيَة، ولكنه ترعرع شريراً أيضاً، فانتهى به المطاف لقتل أخيه. ولا أعتقد أن إبراهيم الكوني اطّلع على النص الشعبي حول قابيل وهابيل حتى يستطيع أن يستلهم منه الحادثة، والسرّ يكمن في الجذور الفلكلورية العميقة التي تكتسبها الأسطورة في عقل الشرق القديم. وقد تسنّى لي أن

أطّلع على إحدى السير العربية الإسلامية فقرأت عن شخصية شهيرة في التاريخ العربي هي الحجّاج بن يوسف الذي عـاش في القرن الميـلادي الثامن وشغل منصب والي العراق معيّنا من الخليفة الأموي. بقي الحجاج في الذاكرة العربية تجسيداً لقساوة الحاكم ودمويته، وفي نفس الوقت، مثالاً للسياسي الموهوب والقائد البارع (مثله مثل إيفان الرهيب في تاريخنا). وورد في السيرة التي تمكنت من الاطلاع عليها أن الحجاج رفض عنـد الميـلاد أن يرضع حليب الأم، فجاء الشيطان في صورة بشرية واقترح على أبويه أن يدهنا شفتي الرضيع بدم جدي أسود. لهذا السبب، يقول كاتب السيرة، أصبح متعطشاً للدّم عندما كبر وتولى الحكم. . .

ويخيّل لي أن «موتيف» إرضاع الدّم للوليد الرضيع في الفلكلور العربي المعاصر هو بمثابة إشارة تنبيء عن الشرّ والتعطش للدم في المستقبل. هنا يكمن السرّ الذي يبرر ظهور هذه الحادثة في رواية الكوني.

في الرواية تبرز أحداث فلكلورية أخرى لا تمت بصلة قريبة لأصـول ساميّة أو التراث العربي الإسـلامي، ولكنها تـرجع بـأصولهـا إلى ثقافـة الطوارق، ثقافة الرُّحل، الذين استـوطنوا الشمـال الإفريقي منـذ القدم، ويعتبر إبراهيم الكوني إبناً لهم.

تتضح هذه الإيحاءات في تناسخ الأرواح (كما يذكر قاريء الرواية فإن روح الأب تحـل في ودّان حتى استطاع البـطل أن يفرّ من وجـه الكابتن بورديللو). في أصل اعتقاد من هذا النّوع تكمن التصورات التي تقول بأخوّه الإنسان واتحاده مع العالم الحيـواني المحيط، وهي اعتقادات تميّـز كل الشعوب العريقة التي مرّت عبّر نظام الجماعة البدائية. العلم أطلق على هذه التصوّرات اسم: الطوطمّية.

فالطوطم الذي يمت بصلة قرابة لحيوان يعتبر ربّا يبسط ظلّ الحماية على مجموعة قبلية بشرية معينة، ويملك القدرة على نجدة الإنسان الذي ينتمي

للمجموعة في ساعة الخطر. ولكن على الإنسان أن يلتزم بالمقابل ويراعي طوطمه. فيتوجب عليه أن يمتنع عن صيده، ويحميه من عدوان صيادي القبائل الأخرى. أب البطل خان العهد الطوطمي وقتل الودّان(الموفلون) فلقي مصرعه لهذْا السبب. هذا العهد نفسه خانه قابيل، وإن حدثت الخيانة مع حيوان آخر هو الغزال، فقتل الحيوان الذي تـآخى معه بـالرضـاعة، فعوقب أيضاً بالجنون. سادت في حياة المجتمعات البدائية المبكرة طقوس خاصة، تعذيبية للمسـاهمين بها، فـلا يستطيـع الفتى أن يدّعي النضـج والرجولة إلا بعد المرور بها. اعتقد أن تلك الحادثة التي يجد فيها البطل نفسه معلّقاً فوق الهاوية بعد مطاردة الودّان الجبلي، وانقذ منها بأعجوبة، ليصبح إنساناً آخر بعدها، هذه الحادثة مجبولة بالعادات التي ربما ما زالت تمارس في القبيلة التي ينتمي إليها الكاتب.

ومهما قيل فإن هذه «الموتيفات» سُخّرت بصورة عضويّة، حميمية في نسيج العمل الفنّي بموهبة الكوني وإرادته الإبداعية.

بمساعدة هذه الأدوات استطاع الكاتب أن يعبّر عن قضايا راهنة وملحة بالنسبة لعصرنا، مثل ذلك الارتباط الأخوى العميق بين الكائنات الحية كلها على وجه الأرض. مثل تحريم، بل وتجـريم، التخريب الـوحشي الذي تتعرض له الطبيعة. والقداسة، قداسة الحياة. أنا على يقين أن هذه الرواية لن تترك القاريء، الذي تعرّف إليها، لا مباليّاً.

المحتويـــــات